البعثات الزراعية المصرية إلى الخارج
خلال العصر الملكي

إعداد

د. مصطفى الغريب محمد
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد
كلية الآداب– جامعة بنها

DOI: 10.21608/jfpsu.2020.115141

البعثات الزراعية المصرية إلى الخارج
خلال العصر الملكي

ملخص

يسلط البحث الضوء على أحد الجوانب المهمة فيما كانت يُبذل في مصر من جهود إبان العصر الملكي لترقية الزراعة المصرية، والمتمثل في البعثات الزراعية إلى الخارج، سواء كانت من قبل وزارة الزراعة، أو الجمعية الزراعية الملكية، بهدف الوقوف على ما هو جديد من تجارب، أو نماذج لزراعات غير معروفة بمصر، وبصفة عامة الاستفادة من كل ما من شأنه خدمة الزراعة المصرية والنهوض بها.

ونظرًا لعدم إمكانية تناول جميع ما أُرسل من بعثات بالدراسة في بحث واحد، فقد اقتصرنا هنا على نماذج منها، مع مراعاة توزيعها مكانيًا وزمنيًا كي تكون الفائدة أشمل، بحكم اختلاف البلدان، وبالتالي التنوع فيما هو قائم بكل منها من تجارب ومتوافر من خبرات.

وتتمثل النماذج التي سيُعنى بها البحث في بعثة وزارة الزراعة إلى جاوه وسنغافورة وسيلان (سيريلانكا) عام ١٩٣٣، وبعثة الجمعية الزراعية الملكية إلى فلسطين عام ١٩٤٤، وبعثة الجمعية ذاتها إلى شمال أفريقيا وإسبانيا عام ١٩٥٠.

وبالنسبة للبعثة الأولى، فقد تم تناول خط سيرها منذ تحركها من بورسعيد في ٥ سبتمبر ١٩٣٣، مرورًا ببعض ما نزلت به من أماكن بشكل سريع، وحتى وصولها إلى باتافيا Batavia عاصمة جاوة في الحادي والعشرين من الشهر ذاته، وزيارتها في أعقاب ذلك للحديقة النباتية الشهيرة في بويتنزرج Buitenzorg، ثم توجهها إلى بسارمنجو Pasarmingho حيث محطة تجارب الفواكه الموجودة هناك، وغير ذلك من أماكن أخرى بجاوة يعرض البحث لتفاصيلها. وكذلك الأمر بالنسبة لسنغافورة، ثم سيلان التي كانت بمثابة المحطة الأخيرة للبعثة، لتغادر بعدها عائدة إلى البلاد بعد رحلة استغرقت ثلاثة أشهر ونصف الشهر تقريبًا.

أما البعثة الثانية، التي أُوفدت من قِبل الجمعية الزراعية إلى فلسطين عام ١٩٤٤، فيعرض البحث لتفاصيل زياراتها لكثير من البساتين ومحطات التجارب الفنية، خلال برنامج للبعثة امتد لعشرة أيام ابتداء من ٢٦ مايو ١٩٤٤ لتعود بعدها إلى مصر في ٥ يونية ١٩٤٤.

وأخيرًا، يوقفنا البحث على تفاصيل البعثة الأخيرة، التي كانت إلى شمال أفريقيا وإسبانيا في إبريل من عام ١٩٥٠، وهي التفاصيل المتعلقة بزياراتها المختلفة بكل من تونس والجزائر والمغرب، ثم بعد ذلك إسبانيا التي كان بها النشاط الأكبر للبعثة كما سيتبين من خلال الدراسة.

الكلمات المفتاحية:

البعثات الزراعية، العصر الملكي، باتاڤيا، بويتنزرج، بسارمنجو

تُشكل الزراعة في بلد مثل مصر منذ زمن بعيد أساسًا مهمًا من أسس نهضتها واستمرار مسيرتها نحو تحقيق ما تنشده من أهداف ويتطلع إليه مواطنوها من آمال، ومن ثم كان الاهتمام الخاص الذي استحوذت عليه الزراعة، سواء من جانب المؤسسة الكبرى المعنية بها، المتمثلة في وزارة الزراعة، أو المؤسسات الأهلية التي تركز نشاطها في ذلك المجال، وفي المقدمة منها تلك التي عرفت في فترة الدراسة بـ "الجمعية الزراعية الملكية".

وعلى الرغم من تناول بعض الدراسات المتخصصة لجهود تلك المؤسسات، فإن هناك من الجوانب ما لا يزال بحاجة إلى تسليط الضوء عليه، حتى يتضح ما أسهم به كل منها من نصيب، ومن ثم تصبح الصورة جلية بشأن الجهود المذكورة. ولعل من أهم هذه الجوانب ما كانت ترسله المؤسسات سالفة الإشارة من بعثات إلى بقاع مختلفة من العالم(١)، للوقوف على ما هو جديد من تجارب زراعية، أو نماذج لزراعات غير معروفة بمصر، وكل ما من شأنه النهوض بالزراعة المصرية بصفة عامة.

ولما كان من غير الممكن تناول جميع تلك البعثات في بحث واحد، فإننا سنقتصر هنا على نماذج منها، مع مراعاة توزيعها مكانيًا وزمنيًا، كي تكون الفائدة أشمل، بحكم اختلاف البلدان، وبالتالي التنوع فيما هو قائم بكل منها من تجارب ومتوافر من خبرات.

وتتمثل هذه النماذج التي سيُعنى بها البحث في: بعثة وزارة الزراعة إلى جاوه وسنغافورة وسيلان (سيريلانكا) عام ١٩٣٣، وبعثة الجمعية الزراعية الملكية إلى فلسطين عام ١٩٤٤، وبعثة الجمعية ذاتها إلى شمال أفريقيا وإسبانيا عام ١٩٥٠.

١- بعثة جاوه وسنغافورة وسيلان عام ١٩٣٣

تشكلت هذه البعثة من كل من ناظر مدرسة الزراعة العليا بالجيزة محمود توفيق حفناوي، ومدرس زراعة البساتين بذات المدرسة إبراهيم عثمان، والإخصائي بقسم البساتين بوزارة الزراعة عبد الغني صبحي، وتحددت أهدافها في الاطلاع على كل ما هو مزروع بالجهات المقصودة من فاكهة وأشجار، وما يجرى هناك من أبحاث، فضلًا عن جلب ما تصلح مصر لزراعته من تلك المزروعات.(٢)

وجاء تحرك أعضاء البعثة من بورسعيد على الباخرة مارنكس ڤان سنت الديجوند Marnix Van Sint Aldegonde في ٥ سبتمبر ١٩٣٣، وبعد تسعة أيام كان وصولهم إلى كولومبو Colombo العاصمة

السيلانية التي لم يقضوا بها أكثر من ساعة ونصف الساعة، فلم يتمكنوا من الوقوف على أشياء مهمة من الناحية الزراعية، وذلك لالتزامهم بخط السير الذي قضى بزيارة المدينة حينذاك في أسرع وقت ممكن. وفي اليوم ذاته كانت مغادرتهم إلى جزيرة سبانج Sabang التي وصلوها في ١٧ سبتمبر، وهي جزيرة صغيرة تقع إلى الشمال من جزيرة سومطرة، وكانت خاضعة وقتذاك للاستعمار الهولندي. وقد استغرقت زيارة أفراد البعثة لها نحو الساعتين، ألقوا خلالهما نظرة عامة على نباتاتها، وكان من اللافت لنظرهم أشجار التمر هندي المزروعة بشوارعها كأشجار للظل، حيث تميزت بمتانة خشبها، وسرعة نموها، فضلًا عن جمال منظرها.(٣)

وكان لأعضاء البعثة بهذا الصدد ملاحظتان سُجلتا في تقرير للمسئولين بعد عودتهم إلى مصر:

الملاحظة الأولى، وفيها أعربوا عن ضرورة العناية في مصر بالأشجار المذكورة، وتجربتها بشكل واسع في الطرق الزراعية بالوجه القبلي.

أما الملاحظة الأخرى، فكانت عن زراعة الطرق الزراعية بالأشجار عمومًا، حيث أُشير إلى غياب سياسة ثابتة في هذا الشأن، على الرغم من أهمية ذلك، كي يمكن الانتفاع بمختلف أنواع الأشجار ذات القيمة، التي تجمع بين المنظر الجمالي والفائدة الاقتصادية، واقتُرح تشكيل لجنة مشتركة من قسمي البساتين والحشرات ومصلحة الطرق، لوضع سياسة ثابتة تُحَدَد فيها أنواع الأشجار، والطرق التي تغرس فيها.(٤)

وكان هناك نوع آخر من الأشجار تنبه إليها أعضاء البعثة بطرق جزيرة سبانج، وهو المعروف بأشجار لوز جاوه، وقد وصفوا شجرته بأنها كثيرة الانتشار في المناطق الاستوائية، وأنها تثمر ثمرة يؤكل لُبها الذي يشبه اللوز، وتمتاز بوجود جذور دعامية تمتد عند قاعدتها لمسافات بعيدة، مما يعطي للشجرة منظرًا غير مألوف. وقد أحضرت البعثة معها عند عودتها نباتات حية لهذا النوع من الأشجار، فضلًا عن بذور له، وذلك من أجل تجربته بمصر.(٥)

كذلك أُشير إلى شجر النارجيل(جوز الهند) الموجود بكثرة في تلك الجزيرة، مثلها مثل غيرها من المناطق الاستوائية الممطرة.(٦)

وفي ١٨ سبتمبر جاء وصول أعضاء البعثة إلى بلاوان Belawan مرفأ مدينة ميدان دلي Medan–Deli عاصمة شمال سومطرة، وهناك شاهدوا لأول مرة أعدادًا كثيرة من أنواع الفاكهة الاستوائية، مثل

المانجوستين، وثمر جاك، والنيفليوم كلاباسيم.[٧]

وفي ذات اليوم غادر أعضاء البعثة المرفأ المذكور، وعلى ظهر الباخرة تعرفوا على السلطان محمود سلطان لانجكات Langkat، وهو من أغنى سلاطين سومطرة؛ حيث يوجد بأراضيه الخاصة العديد من آبار البترول، وقد دعا أفراد البعثة خلال حديثه معهم، والذي اتسم باللطف، لزيارة بلاده عند عودتهم، كما طلب تبليغ تحياته إلى ملك مصر فؤاد الأول.[٨]

وتبدو لنا هنا ملاحظتان: أولاهما خاصة بمصر، وهي ما كان لها من مكانة حينذاك نالت بها احترام الآخر وتقديره، الأمر الذي بدا جليًا في لقاء السلطان المذكور بأفراد البعثة. أما الملاحظة الأخرى، فهي تتعلق بالسلطان المذكور ومسألة امتلاكه لبعض آبار البترول، إذ يتبدى هنا أن حيازة هذا النوع من الثروة لم تكن مقصورة على السلطة ككيان سياسي يتصرف فيها لصالح الشعب بحكم كونها من الثروات العامة، على نحو ما هو شائع ومعروف لدينا، فكان هناك من الأفراد من يتمتع بذلك أيضًا، لكن لا نعرف ما إن كان ذلك مقصورًا على من يشغلون مراكز وظيفية معينة أم أن المسألة ترتبط بالظروف الاقتصادية الخاصة بكل فرد من الأفراد.

وعلى أي حال، فقد وصلت البعثة باتاڤيا Batavia[٩] عاصمة جاوه في ٢١ سبتمبر، ومنذ اللحظة الأولى لها هناك وجد أفرادها كل الترحيب والمجاملة من الحكومة الهولندية، فتم إعفاؤهم من الرسوم المقررة على كل من ينزل من الأجانب إلى جزائر الهند التابعة لهذه الحكومة، وقام الحاكم العام من جهته بإصدار توصياته لجميع العاملين بتقديم العون والتسهيلات اللازمة لتيسير مهمة البعثة، وفي الجمرك مر الأعضاء دون تفتيش لأمتعتهم[١٠]، كما رحب بها السادة العلويون، من خلال وفد بعثته لمقابلتها الهيئة المركزية للرابطة العلوية[١١]، وكان للصحف المحلية الهولندية هي الأخرى مشاركتها في ذلك الترحيب، متطرقة إلى ما يربط بين جاوه ومصر من علاقات، ولفتت بمناسبة ما توارد من اعتزام الحكومة المصرية إيجاد قنصل لها في اليابان إلى ضرورة وجود قنصل لمصر بإندونسيا، وتقديم ذلك على اليابان؛ لأهمية العلاقات بين البلدين، لا سيما العلاقات الدينية والرابطة الإسلامية، حيث كان "مسلمو إندونسيا ينظرون إلى مصر في الشئون الدينية نظر التلميذ إلى أستاذه".[١٢] وقد بعثت صحيفة يافا بودي- أكبر صحيفة يومية هولندية بإندونسيا- بأحد محرريها إلى الفندق الذي نزلت به البعثة، للوقوف على مهمتها، والتي أوضحها رئيسها فيما جرى من حوار مع المحرر المذكور، والذي نشرته الصحيفة في أبرز مكان بين صفحاتها مع صورة

مرسومة لرئيس البعثة.(١٣)

ومضى أعضاء البعثة في صحبة مدير قسم البساتين بجاوه أوخسي Ochse إلى بويتنزرج Buitenzorg، حيث الحديقة النباتية الشهيرة والمباني الخاصة بمصلحة الزراعة. وفي اليوم التالي كان اللقاء بمدير الزراعة الذي وضع برنامجًا لزيارة البعثة للأماكن المهمة بكل من جاوه وبالي.(١٤)

في رحاب الحديقة النباتية

حرص أعضاء البعثة على زيارة تلك الحديقة للتزود منها بما يمكن تجربته بمصر من نباتات مختلفة، ونظرًا لما كانت تحظى به من شهرة، فقد ارتأوا الوقوف على موجز لتاريخها الذي دونوه فيما أعدوه من تقرير عن البعثة، فأشاروا إلى نشأتها بجوار سراي الحاكم العام لجزر الهند الشرقية الهولندية عام ١٨١٧، بواسطة أحد أساتذة علم النبات بجامعة أمستردام، ويدعى رينورد Reinwardt، الذي ظل مسئولًا عن إدارتها لمدة خمسة أعوام، ثم خلفه بليم Blume حتى عام ١٨٢٦، وكانت الحديقة في ذلك الوقت تحتوي على ألف نوع من النباتات، بيد أنها منذ هذا التاريخ، ولفترة نافت على الأربعين عامًا، ظلت بلا مدير، الأمر الذي ألقى بظلاله عليها، فلم تشهد أية تقدم يذكر، ولما آلت مسئوليتها إلى شيفر Scheffer عام ١٨٦٨، بدأ في إعادة تنظيمها من جديد، وتواصلت أعماله بها إلى أن توفي عام ١٨٨٠، ليخلفه بعد ذلك ترويب Treub المعروف بكفاءته العلمية والإدارية، وهو ما انعكس بشكل إيجابي على الحديقة، فاتسعت مساحتها، وأقيمت معامل جديدة بها، فضلًا عن محطات للتجارب وبعض المتاحف، كما أُنشئ معمل خاص بالأجانب مزودًا بأحدث الآلات العلمية لإجراء أبحاثهم فيه، وقد شهد إقبالًا كبيرًا حتى صارت بويتنزرج مقصدًا رئيسًا لعلماء التاريخ الطبيعي والباحثين فيه على مستوى العالم. وفي عام ١٩١٠، ومع مطلع إدارة كوننجزبرجر Koningsberger(١٥)، أُضيف إلى الحديقة معملًا جديدًا تخليدًا لذكرى ترويب، فصارت بذلك تمثل مركزًا علميًا له أهميته الكبيرة. وبعد كوننجزبر جاء ڤان ليفين Van Leeuwen في عام ١٩١٨، وقد زار مصر عام ١٩٣٢، وهو ذات العام الذي اعتزل فيه أعماله بالحديقة، ليتلوه في إدارتها دامرمان Dammerman.(١٦)

وقد أخذ أعضاء البعثة بعد ذلك في تقديم صورة لواقع الحديقة، فأشاروا إلى مساحتها التي تتجاوز المائتي فدان- ٢٠٥ فدانًا على وجه التحديد-، والأشجار والنباتات المختلفة التي تزرع بها، وسهولة

الوصول إلى أي نبات يُطلب منها، لوجود رقم خاص بكل نوع من أنواعها، ووجود نموذجين لكل من الأشجار الكبيرة، حتى إذا مات واحد أمكن الرجوع للآخر. وكان مما استرعى الأنظار الطريق العام بالحديقة، حيث يزرع على جانبيه أشجار الكناري يتسلق عليها أنواع مختلفة من المدادات الورقية، وعلى فروع تلك الأشجار تنمو أنواع الأوركيدات جميلة الأزهار، كما لفت الأنظار كذلك مجموعات النخيل متعددة الأصناف، والتي تعد من أكبر مجموعات النخيل في العالم، إن لم تكن أكبرها جميعًا..إلخ.(١٧)

أما فيما يتعلق بالهدف من الزيارة للحديقة، فإن أعضاء البعثة قد وقع نظرهم على عدد ليس بالقليل من النباتات التي ارتأوا تجربتها بمصر، إما لفائدتها الاقتصادية، أو منظرها الجذاب، أو أهميتها من الناحية العلمية، وقد أمكنهم بالفعل الحصول على بعض النباتات الحية، فضلًا عن كمية من البذور استحضروها معهم خلال عودتهم إلى البلاد، وكانوا قد تركوا كشوفًا بكل ما يحتاجون إليه لدى ملاحظ الحديقة الذي وعد بإرسال المطلوب عند سنوح الفرصة، وهو ما تم بالفعل، وبلا مقابل مادي، كما قامت من جانبها شركتا نيدر لاند Neder land و روتردام لويد Rottterdam Lloyd التجاريتين بعملية النقل إلى مصر دون تقاضي أية رسوم، وذلك من باب المجاملة للحكومة المصرية.(١٨)

بين مدن جاوة وبلدانها

وفي ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣ توجهت البعثة من بويتنزرج إلى بسارمنجو Pasarmingho بصحبة مدير البساتين أوخسي، من أجل تفقد محطة تجارب الفواكه الموجودة بتلك البلدة، وكان من أهم ما شوهد هناك شجرة الفاكهة المعروفة باسم "السابوتا"(١٩)، وكيف يقوم الأهالي بإنضاج ثمارها صناعيًا وقت اللزوم، حيث يضعونها في حفرة ويقوموا بتغطيتها بأوراق جافة من أشجار الموز، ثم يمدونها بدخان عبر إنبوب من البامبو.(٢٠)

ومن حسن حظ البعثة أن ذلك الوقت كان موسم نضج أغلب الفواكه بجاوه، فأتيح للأعضاء تذوق أنواع مختلفة منها(٢١)، وكان من بينها ذلك النوع المعروف باسم "الدوريان"، الذي يتميز بحلاوة طعمه الذي يشبه القشدة، ومع إن رائحته أشبه بمزيج من رائحة البصل والثوم المتعفنين، فإنه يأتي في مقدمة الفواكه بالنسبة للجاويين، الأمر الذي جعله أغلى ثمنًا من الفواكه الأخرى. والأجانب الذين استوطنوا البلاد منذ فترة طويلة يحبونه كالجاويين، أما حديثو العهد منهم فإنهم يشمئزون منه.(٢٢)

كذلك من الأنواع الأخرى التي أُشير إليها ذلك النوع المسمى "الباباز"، ويوجد منه أصناف عديدة، لكن أهمها نوعان هما: باندجانق، و بوندر، وقد أُرسلت منهما بعض البذور إلى مصر. وسجل رجال البعثة أن "الباباز" من الثمار التي تستحق أن تعطى عناية كبيرة في مصر– وخصوصًا في الوجه القبلي، إذ تتوافر بشكل جيد ظروف نموه– لما تحظى به من إقبال الجمهور، فضلًا عن فائدتها الصحية، حيث تحتوي على مادة بابين التي تشبه الببسين[٢٣] في فعلها، فتساعد على هضم المواد البروتينية.[٢٤]

أيضًا كان الموز بين الفواكه التي شملتها مشاهدات أعضاء البعثة خلال زيارتهم لمحطة التجارب المذكورة، وقد وجدوا منه أصنافًا كثيرة جدًا، لكنها بشكل عام تنقسم إلى قسمين رئيسين: الأول ذو ثمار حلوة الطعم، والثاني ثماره قليلة الحلاوة. ولم تر البعثة جلب أية أنواع من ذلك الموز معها إلى مصر؛ لأسباب عدة، من بينها كثرة ما يعتريها من أمراض هناك، فلا تدخل تلك الأمراض البلاد، وكذلك لأن جميعها ذوات نباتات طويلة تحتاج لنموها إلى أماكن محمية من الرياح، وهو ما لا يتوافر بالشكل المناسب في مصر، فضلًا عن هذا، فإن تلك الأصناف تحتاج إلى أسمدة وافرة لا يتيسر وجودها بسهولة في مصر.[٢٥]

هذا وقد وقف أعضاء البعثة على ما يقوم به قسم البساتين من تجارب مهمة لاختيار أجود أصول للموالح، وقد لفتوا في تقريرهم إلى أحسن الموالح في بسارمنجو نموًا وإثمارًا، فضلًا عن بيان طريقة التطعيم[٢٦]، والتي كان لها الدور المهم فيما لمسوه من نتائج طيبة.

وكانت المحطة التالية التي زارها أعضاء البعثة بعد بسارمنجو هي سورابايا Surabaya بشرق جاوه، والتي استغرق سفرهم إليها بالقطار من بتافيا العاصمة اثنتي عشرة ساعة، حيث يبلغ طول الطريق ٨٠٠ كيلو متر تقريبًا، وهناك وجدوا ضمن مستقبليهم بعض أعضاء الرابطة العلوية، الذين أشادوا بمصر وملكها، وقد وضع حسين بن عمر باعقيل العلوي سيارته الخاصة لتكون في خدمة البعثة خلال زياراتها الخارجة عن حدود سورابايا مدة وجودها بها.[٢٧]

أيضًا كان من بين مستقبلي البعثة مصري يسمى "الشيخ محمد محمد المرشدي"، والذي تعود أصوله إلى عائلة مهنا بمديرية البحيرة، وهو المصري الوحيد المقيم بجاوه، ويدير هناك مدرسة صغيرة خاصة به، يعلم فيها اللغة العربية والدروس الأولية التي يتعلمها تلاميذ المدارس الابتدائية، وقد وقف أعضاء البعثة منه

على قصة مجيئه إلى جاوه، والتي تمثلت باختصار في أنه بعد تخرجه في الأزهر ذهب إلى الهند بناء على رغبة بعض الهنود المقيمين بمصر، وذلك للقيام بتعليم اللغة العربية هناك مقابل راتب مغر، لكنه بعد فترة لم يتفق فيها مع مستخدميه ترك الهند متجهًا إلى جاوه، حيث استعان به العلويون لتدريس اللغة العربية والدين الإسلامي بإحدى مدارسهم، ثم انتهى به الأمر إلى الاستقلال بمدرسته المشار إليها، والتي تبين لأفراد البعثة عند زيارتهم لها أنها أشبه بالمدارس الأولية في مصر– حيث كان يتعلم الأطفال القراءة والكتابة ومبادئ الحساب–، وقد علموا خلال تلك الزيارة بحصول الشيخ المصري على إعانة من الرابطة العلوية تكفي بالكاد مع عائد المدرسة لما يحفظ به رمقه على وجه التقتير.(٢٨) ونرى من جانبنا أنه كان أحرى بأعضاء البعثة إزاء هذا الوضع الذي عليه الشيخ المصري أن يضمنوا تقريرهم مقترحًا لمساعدته من جانب الحكومة المصرية بشكل أو بآخر، فهو كان بمثابة رسول لمصر بتلك المنطقة التي يعمل بها، والأمر لم يكن ليكلف الحكومة كثيرًا، خاصة وأنه كان المصري الوحيد الموجود بجاوه كما أوضح رجال البعثة.

ومما يسجل ضمن نشاط البعثة في سورابايا لقاء أعضائها بمدير نقابة معامل السكر هناك للحصول على تصريح لزيارة محطة الأبحاث الخاصة بقصب السكر بمنطقة بسو روان، وقد سألوه خلال ذلك اللقاء عن إمكانية الحصول على عينات من الأنواع الجيدة من القصب الذي يزرع في جاوه لتجربتها في مصر، غير أن الرجل ما كان منه سوى الاعتذار عن عدم تلبية الطلب بحجة وجود قانون يمنع نقل القصب إلى خارج البلاد، وهو القانون الذي تم سنه بعدما تبين لنقابات السكر في جاوه أنها بعد صرف أموال طائلة على محطات التجارب والعلماء لاستنباط الأصناف الجديدة من القصب، تأتي البلاد الأجنبية وتأخذ ثمار مجهوداتهم بكل سهولة، ويُزاحم بعد ذلك السكر الجاوي في الأسواق العالمية. وقد اتضح للبعثة أن هناك رسائل عديدة من القصب الجاوي خرجت إلى البلاد الأجنبية بطريق التهريب، الذي كان في أغلبه سريعًا لدرجة أن الصنف الجديد الذي كان يزرع في جاوه كان يزرع في بلاد أخرى في الوقت ذاته.(٢٩)

وعلى أية حال، فقد غادر أعضاء البعثة سورابايا إلى بسوروان Pasuruan، وهناك جاءت زيارتهم لمحطة الأبحاث الخاصة بالقصب، والتي تبين قيامها على أحدث نظام، كمحطات التجارب في البلاد الأوروبية، لكنه لم يخف تأثرها بشكل كبير جراء الأزمة الاقتصادية العالمية– أزمة الكساد أو الانهيار الكبير Great Depression التي بدأت في الولايات المتحدة الأمريكية في خريف عام ١٩٢٩مع

الانهيار المفاجيء بسوق الأوراق المالية وسرعان ما امتدت إلى بلدان العالم المختلفة- حيث قلت المساعدات التي كانت تقدم لها من جانب بعض الشركات، مما اضطر القائمين عليها إلى الاستغناء عن كثير من العاملين بها من ذوي الخبرة والكفاءة، الأمر الذي أثر سلبًا على استمرارية ما كان يجرى بها من أبحاث مهمة.(٣٠) وإذا كان لنا من ملاحظة هنا، فإنها تتمثل فيما كان يجب على أعضاء البعثة من الإشارة إلى أهمية تقديم المساعدات المالية من قِبل الشركات لمحطات ومعامل الأبحاث في مصر، تأسيًا بما هو معمول به مع محطة أبحاث القصب المشار إليها، والتأكيد على أن ذلك من شأنه العود بالنفع على الجميع، وفي المقدمة منه تلك الشركات التي تتقدم بمساعداتها.

وفيما يخص أنشطة المحطة، لفت أعضاء البعثة إلى أنه كان من أهمها ما تقوم به من عمل خرائط بيانية لجميع الأراضي التي تستثمر في زراعة القصب، والذي كان يتم بالطبع في ضوء نتائج ما يجرى من تحليل لآلاف من عينات التربة، وتتمثل فائدة تلك الخرائط في أنه يصبح من المتيسر معرفة أفضل الجهات لنمو القصب والاقتصار بالتالي في الزراعة عليها. كما تقوم المحطة كذلك بعمل تجارب زراعية خاصة بالتسميد، وبمقدار الري، وقد تبين لرجال البعثة من خلال تباحثهم مع مفتشي المحطة حول الأسمدة التي ثبت أفضليتها على غيرها للقصب- تبين أن أهمها هو الأسمدة الأزوتية، وأن أفضل تلك الأسمدة هو سلفات النشادر التي يفضلونها على نترات الصودا والجير، لرخص ثمن الوحدة من الأزوت فيها، عنها في السمادين المذكورين، ولأنه لا يضيع بسهولة في مياه الصرف مثلهما. ولما كان هذا السماد لا يستعمل كثيرًا بمصر في تسميد القصب، فقد ارتأت البعثة أهمية إجراء تجارب عليه في جهات مختلفة، حتى يمكن القطع بشكل نهائي فيما إذا كان يفضل نترات الصودا والجير في مصر كما يفضلهما في جاوه.(٣١)

وكان من المسائل الأخرى التي حازت على اهتمام البعثة خلال وجودها في بسوروان، زراعة المانجو بها، حيث اتضح أن منطقة بسوروان وأجوارها أكثر الجهات في جاوه صلاحية لزراعة المانجو، لملائمة الظروف الجوية هناك، ووقفت البعثة على الدور المهم الذي تقوم به فيما يخص تلك الزراعة حديقة تجارب بسوروان التابعة لمصلحة الزراعة، وارتأت أهمية الاستفادة من تجاربها في هذا المجال بمصر. ومن خلال ما توافر للبعثة من معلومات حول المانجو بجاوه، أفادت بوجود أصناف كثيرة للغاية منها هناك، بيد أن الجيد من تلك الأصناف أربعة فقط، وهي أرومانس، وجوليك، وجيدونج، ومنالاجي، ولذلك

لم تستحضر البعثة معها إلى مصر سوى هذه الأصناف. وقد أحيطت البعثة علمًا بتفاصيل عملية زراعة المانجو وطريقة التطعيم المتبعة بشأنها، وحددت بعض الجوانب التي أشارت باستحسان تجربتها في مصر.(٣٢)

ولم يَفُتْ البعثة خلال وجودها ببسوروان القيام بزيارة جبل توساري المجاور، حيث توجد المساحات الكبيرة المنزرعة بالأشجار الخشبية، وبهذه المناسبة ألمح رجال البعثة في تقريرهم إلى ما تحتله جزر الهند الشرقية بصفة عامة من مكانة متقدمة بين دول العالم في إنتاج الأخشاب، وعددوا أنواعها المختلفة، ومواصفات كل نوع واستخداماته، وكان من أجود الأنواع التي ذكروها ذلك النوع المسمى بخشب التيك، والذي تصدر منه كميات كبيرة كل عام إلى أوروبا وجنوب أفريقيا. وقد استحضرت البعثة معها إلى مصر بذورًا لأنواع مختلفة من الأشجار الخشبية، لكنها أوصت بالتركيز على التيك وأنواع الماهوجني، مشيرة إلى أهمية انتشار تلك الأنواع على جوانب الطرق الزراعية والترع وكل الأماكن التي تستحسن فيها زراعة الأشجار، خصوصًا في الوجه القبلي، حيث تتوافر ظروف جوية أنسب لنموها.(٣٣)

البعثة وجزيرة بالي

وفقًا لبرنامج البعثة كانت بالي – الجزيرة الصغيرة الواقعة إلى الشرق من جاوه – من الأماكن المقرر زيارتها، وهو ما تم بالفعل، وقد لمس أعضاء البعثة على أرض الواقع ما كانوا يسمعونه عن الجزيرة وسحر جمالها، وبينوا في تقريرهم المظاهر المختلفة الدالة على ذلك، كما تحدثوا عما تشتهر به الجزيرة من اتقان أهلها لتربية الحيوانات، فضلًا عن زراعة الأرز، حيث تعد أحسن منطقة لزراعته بجزر الهند الشرقية، وأُشير إلى أنواع الأرز المختلفة، ومواعيد الزراعة، وطريقتها، وأوقات الحصاد وكيفيته..إلخ. وكان للري ونظامه بالجزيرة نصيبًا واضحًا من اهتمامات البعثة، الأمر الذي بدا جليًا فيما سيق بخصوصه من تفاصيل كثيرة.(٣٤)

وقد وقفت البعثة خلال زيارتها للجزيرة على نواح أخرى يتصل بعضها بالتاريخ وبعضها الآخر ببعض العادات هناك، وهو ما يبدو فيما أُشير إليه من أن بالي هي الوحيدة بين جزر الهند الشرقية التي استمرت تحافظ على ديانتها الهندستانية – وهي معتقد وضعي وليست إحدى الديانات السماوية على نحو ما هو معروف– وكانت معقلًا لتلك الديانة لجأ إليه كل من لم يقبل الإسلام في الجزر الأخرى، وبرغم قربها من

جاوه لم يتمكن المبشرون، سواء أكانوا من المسلمين أم من النصارى، من التأثير في معتقد أهلها. وكذلك ما قيل عن أن أهلها أكثر مرحًا من أهل جاوه، حيث توجد بكل مكان جماعاتهم التي تعزف على الآلات الموسيقية الغريبة، وترقص الرقصات الدينية الخاصة بهم، والأطفال هناك يتمرنون على ذلك من سن الرابعة، فيكتسبون بمضي الزمن المهارات الفائقة.(٣٥)

وقبل مبارحة البعثة للجزيرة بنحو ساعتين، جاءت دعوتها إلى حفل شاي من بعض أفراد الرابطة العلوية الذين كانوا قد علموا من زملائهم بجاوه بوجود البعثة في بالي، وكان اللقاء بمنزل زعيم الرابطة، وكم كانت دهشة أعضاء البعثة عظيمة عندما شاهدوا في صدر غرفة الاستقبال صورة للملك فؤاد وولي عهده الأمير فاروق، والتي استدلوا من وضعها بالنسبة لغيرها من الصور المجاورة على أنها لم توضع خصيصًا بمناسبة الزيارة، وإنما هي معلقة في مكانها منذ فترة ليست بالقريبة، وهو ما يعكس بوضوح مكانة مصر الكبيرة وقدر ملكها لدى هؤلاء، واللذين أكد عليهما زعيم الرابطة فيما ألقاه من خطبة باللقاء، وما جاء كذلك على لسانه عند توديعه للبعثة من قول: "لازم تسلموا لنا على الملك فؤاد".(٣٦)

جاوه .. عود على بدء

بعد انتهاء زيارتها لبالي عادت البعثة لاستكمال نشاطها بمدن جاوه وبلدانها، وكان من أهم المناطق التي حلت بها مدينة مالانج Malang الواقعة في الشرق، وهناك أتيح لأعضاء البعثة زيارة مدرسة الزراعة المتوسطة، وكان من أهم ما لاحظوه بها عدم احتوائها على معامل، سواء للطبيعة أو الكيمياء أو النبات، إذ يكتفى بما يقوم به المدرس من تجارب بالفصول أمام طلابه، بينما معظم الوقت يقضيه هؤلاء الطلاب في الزراعة العملية وفي المصانع. وقد ارتأت البعثة أن هذا النظام هو الأفضل مقارنة بما هو متبع بالمدارس المتوسطة في مصر، حيث يضيع كثير من وقت طلابها في المعامل، مع أنه ليس من رسالتها تخريج كيميائيين أومتخصصين في الطبيعة وفي النبات.(٣٧) وفي حدود علمنا لا يزال هذا النظام حتى الوقت الراهن هو الغالب في معظم مدارس التعليم الفني في مصر رغم تواصل النداءات الداعية إلى تطويره ليكون على الشكل الذي يجب أن يكون عليه، ومن ثم تحقق كل ما يرجى من ورائه من غايات.

وفي مالانج أيضًا كان للبعثة مشاهدات عدة شملت زراعات للبُن، ونخيل الزيت، والأرز، وقد وقفت على كثير من التفاصيل الخاصة بكل منها، والمتمثلة في الزراعة وطرقها، والمساحات المنزرعة،

والمحصول، والتصدير ..إلخ.[٣٨]

وفي مساء ١٢ أكتوبر(١٩٣٣) كان سفر البعثة من مالانج إلى سولو Solo بوسط جاوه، وكان في مقدمة ما زارته بها مدرسة الزراعة الابتدائية، وهي مدرسة تتسم ببساطة أبنيتها، ومستوى التعليم فيها، ولا تضم سوى عدد قليل من التلاميذ الذين يعيشون معيشة الفلاحين، ويتولى سلطان سولو الإنفاق عليها من ماله الخاص. كما زارت البعثة كذلك السراي السلطانية بدعوة من زوج بنت شقيق السلطان رئيس محكمة البلاط الأمير ونجز وناجورو، الذي كان قد التقى أعضائها بمحل إقامتهم، وقد رأى الأعضاء بالسراي من التقاليد المعمول بها ما يخالف ما يعرفونه تمامًا، فحينما وطئت أقدامهم أرضها، خلع الأمير المذكور، والذي كان يرافقهم، نعليه وسار حافيًا، وعند مدخلها كان الجند جالسين، ومتجهين بوجوههم نحو مبناها، ونصفهم الأعلى عار، وكان إذا مر عليهم شخص عظيم أو ضابط كبير جلسوا القرفصاء أمامه تحية له بدلًا من أن يقفوا، وإذا كان مقام المار أقل بعض الشيء كانت التحية نصف جلسة. وهناك من التفاصيل الأخرى التي تحدث عنها أعضاء البعثة الكثير[٣٩]، لكنها خلت من أية إشارة تفيد بمقابلتهم لصاحب السراي ذاته (السلطان).

وبعد ذلك جاء ذهاب البعثة لجكيا المجاورة لسولو، وكان من ضمن ما زارته بها قصر قديم للسلاطين السابقين يطلق عليه اسم "القصر المائي"، وقد لفت نظر أعضاء البعثة هناك بعض أشجار بحديقة القصر من نوع (ستلو كو كاربوس بورا بول)، وهي شجرة ذات ثمار تؤكل، وقيل أن نساء سلاطين الأزمنة الفائتة كن يحتكرنها، لما كانت تقوم به من تعطير لرائحة البول والعرق!![٤٠]

أيضًا زارت البعثة في جكيا Jkia تلك المؤسسة المعروفة باسم "الجمعية المحمدية"، بناء على دعوة تلقتها من القائمين عليها، وقد وقف أعضاؤها على سبب إنشاء الجمعية، والمتمثل فيما لوحظ في فترة من الفترات من تحول كثير من المسلمين إلى النصرانية أمام إغراءات كانت تمارسها بعض جمعيات التبشير هناك، كتقديم الخدمات من خلال مستشفياتها ومدارسها وخلافه، فرأى المسلمون تقديم مثل تلك الخدمات للأهالي، فكان إنشاء الجمعية، التي اشتملت على زاوية للصلاة خصصت للنساء، ومدرسة من نوع رياض الأطفال، وأخرى للمعلمين، وملجأ للعجزة، ومستشفى. وقد أعرب القائمون على الجمعية لرجال البعثة عن تطلعهم إلى معاونة مصر لهم في إرسال معلم للغة العربية والدين الإسلامي لمدرسة المعلمين، فضلًا عن بعض الكتب العربية[٤١]، وهو ما إذا كانت الحكومة المصرية حينذاك قد استجابت له، فإنه يكون مما

يسجل لها، ولا يمكن تناول تاريخ العلاقات المصرية الإندونسية في تلك الفترة دون الإشارة إليه والإشادة به.

ثم كانت المحطة التالية للبعثة هي باندونج Bandung في غرب جاوه، وقد التقى أعضاؤها بمحافظها الذي رافقهم خلال بعض مشاهداتهم هناك. وكان من أبرز ما اتجه إليه الاهتمام مزارع الشاي الموجودة بجوار باندونج، وبمناسبة ذلك فاض تقرير البعثة بالحديث عن زراعة الشاي بجاوة وبجزر الهند الشرقية بشكل عام، والذي تناول أنواعه، وتاريخ زراعتها، والمساحات المنزرعة وأماكنها، وكميات الإنتاج، فضلًا عن البلاد المستهلكة لمعظم هذا الإنتاج، والمتمثلة في بريطانيا، وتليها هولندا ثم أستراليا.(٤٢)

وبعد انتهاء زيارة باندونج، جاء توجه أعضاء البعثة في ٢٠ أكتوبر إلى بويتنزرج، التي مكثوا بها حتى نهاية المهمة بجاوه في ٦ نوفمبر، وقد أمضوا تلك الفترة في العديد من الأنشطة التي كان من بينها زيارة المزارع بالنواحي المجاورة لبويتنزرج، ومحطات تجارب وزارة الزراعة، فأحاطوا بتفاصيل كثيرة تعلق بعضها بالنباتات العطرية والزيوت المستخرجة منها، كزيت الكانانجا، وزيت الكاجابت، وزيت الباتشولي، وكذلك بعض الصناعات، مثل صناعة القبعات، وصناعة خوص الطرابيش، وقد أشاروا بمناسبة الحديث عن الصناعة الأخيرة إلى أن أهل جاوه قاطعوا ارتداء الطرابيش منذ الحرب الطرابلسية ١٩١١/١٩١٢ وصراع إيطاليا مع دولة الخلافة الإسلامية، حيث كان قد أشيع حينذاك أن الطرابيش صناعة إيطالية، ولبسوا بدلًا منها طاقية من صناعتهم تشبه القلبق التركي(٤٣)، ومن ثم لم يكن الخوص الذي يصنع بجاوه منذئذ للاستهلاك المحلي، وإنما للتصدير إلى الخارج، وكانت مصر إحدى البلاد المستقبلة لتلك الصناعة(٤٤) بحكم أن الطربوش كان هو السائد كلباس رسمي للرأس حينذاك.

جدير بالإشارة أن البعثة استحضرت معها إلى مصر نماذج من الغاب الذي تصنع منه تلك الطرابيش، وهو المعروف بغاب "البامبو"، ومعه بعض الأنواع الأخرى المهمة في جاوه، وقد ألمحت في هذا الصدد إلى ما يحظى به الغاب بصفة عامة من أهمية كبيرة لدى الإنسان الجاوي، حيث يستخدم في كل شيء في حياته، الأمر الذي جعل جاوه تعرف بـ "مدينة الغاب". وقد ألمحت البعثة إلى استخدامات الغاب في العديد من الصناعات المنزلية المريحة التي تقوم بها ربة المنزل وأولادها بجاوه في أوقات فراغهم، وما ينتج عن ذلك من عائد مادي يساعد في نفقات الأسر، مشيرة إلى استحسان قيام مثل تلك الصناعات في القرية

المصرية، وطالبت بوجوب عمل الحكومة على إدخال أنواع الغاب المهمة التي استحضرتها البعثة ونشرها في مصر، لما لها من الفوائد المشار إليها، فضلًا عن جمال منظرها إذا ما زرعت على جوانب النيل والترع، مضيفة أن من السهل بعد نجاح التجربة في مصر استحضار بعض الجاويات لتعليم الأهالي الصناعات المطلوبة.(٤٥)

وكانت محطة تربية الأسماك من محطات التجارب التي قامت البعثة بزيارتها في تلك الفترة، فوقفت على الدور الذي لعبته هذه المحطة في نشر أنواع الأسماك التي تقوم بتربيتها- وكان في مقدمتها نوع يسمى شبوط (يُعرف في بعض البلدان العربية باسم المبروكة)- في كل أنحاء جاوه، لدرجة أن السمك صار مع الأرز يشكلان الغذاءين الرئيسين للأهالي. وقد استحضرت البعثة معها إلى مصر آخر كتاب كُتب عن تربية نوع السمك المذكور، على أمل أن تستفيد منه مصلحة مصائد الأسماك، وتقوم بتجربة ذلك النوع، خصوصًا في مناطق الأرز، لسرعة نموه وسهولة تربيته، فضلًا عن أنه من الممكن أن يكون مصدر ربح كبير إذا لاقت التجربة النجاح المرجو لها.(٤٦)

وعلى ذكر الأسماك، روى أعضاء البعثة أن من أهم الأشياء التي أثارت انتباههم في جاوه، أنها رغم ارتفاع حرارتها، وكثرة ما فيها من برك ومستنقعات، وانتشار حقول الأرز، يندر فيها وجود الناموس، وأنه في أردأ الأماكن أقل انتشارًا مما هو عليه في أحسنها في مصر، خلال الصيف. ولما بحثوا عن السبب، عرفوا أن هناك ثلاثة أنواع من الأسماك الصغيرة- بانشاكس بانشاكس، درماجنيس بسيلس، بتابوجناكس- التي تتغذى على يرقات الناموس، منتشرة في كل مكان في المياه الجاوية، ومن ثم ربما يكون ذلك هو السبب في قلة انتشار الناموس هناك. وعليه فقد حرصت البعثة على أن تأتي معها بنماذج حية للثلاثة أنواع هذه، وهو ما تمكنت منه بالفعل، حيث حصلت على النوعين الأولين من جاوه، والثالث استحضرته من سنغافوره خلال زيارتها لها، لكن لسوء الحظ لم يبق حيًا من تلك الأنواع سوى النوع الثالث، الذي كان مكون من ذكرين وأربع إناث، وقد رجت البعثة أن يتوالد وتكثر أعداده لنشرها بأنحاء شتى من البلاد.(٤٧)

وفي النهاية، وقبل مغادرة أعضاء البعثة لجاوه، كان تقدمهم بالشكر للسادة العلويين، وفي المقدمة منهم آل العطاس، حيث لم يتوانوا عن أية مساعدة، فضلًا عن تكريمهم للبعثة في حفل أمه أفاضلهم وأولي الرأي منهم.(٤٨)

وفي يوم سفر البعثة كتبت كبريات الصحف الهولندية المحلية والإندونسية العديد من المقالات التي عبرت خلالها عن روح الصداقة مع مصر وشعبها، متمنية للبعثة كل التوفيق في مهامها وعودتها سالمة بعد انقضاء أعمالها، ولم يُستثنى من ذلك سوى إحدى الصحف الهولندية، حيث كتبت تحت عنوان "اغلقوا الباب" معاتبة الحكومة على قبولها دخول البعثة إلى إندونسيا والسماح لها بدراسة الأثمار والمنتجات التي لا توجد في غير هذه البلاد، زاعمة أن إندونسيا تخسر خسائر باهظة بنجاح البعثة فيما أرسلت من أجله، إذ تنقطع أو تقل طلبات الخارج لهذه الأثمار فيما بعد، وادعت لتبرير موقفها أن للبعثة غرضًا سياسيًا بجانب مقصدها الزراعي، مشيرة إلى اتصالها بالزعيم الإندونيسي الدكتور ستومو(٤٩)، وخلصت إلى أن من الواجب على الحكومة في ضوء ذلك القيام بإغلاق الباب في وجه أية بعثة تقصد البلاد.(٥٠) ولا يخفى هنا ما في كلام الصحيفة من تطرف ومبالغة لا مبرر واقعي لها، حيث إن الأمر لا يتجاوز كونه نوع من التعاون وتبادل الخبرات في مجال العلاقات التي تقوم بين الدول.

في سنغافوره

غادرت البعثة باتاڤيا إلى سنغافورة بالطائرة يوم ٧ نوفمبر ١٩٣٣، وكان ضمن مستقبليها لدى وصولها في اليوم ذاته كل من إبراهيم بن عمر السقاف العلوي وحسين بن علي السقاف العلوي، وأحمد بن عمر بافقيه العلوي(٥١)، وفي اليوم التالي جاء لقاؤها بالمستر هنز Hanz سكرتير المستعمرات– كانت سنغافوره وجارتها مالايا(ماليزيا حاليًا) من المناطق التي كانت تخضع حينذاك بجنوب شرق آسيا للاستعمار البريطاني– والذي سلم لأعضائها خطابين توصية، أحدهما إلى مدير الحديقة النباتية، والآخر إلى مدير مصلحة الزراعة بكوالا لامبور Kuala Lumpur. وبدأ أعضاء البعثة برنامج زيارتهم بالحديقة المذكورة، والتي أمضوا فيها ثلاثة أيام، اختاروا خلالها مجموعة من النباتات والبذور لتكون ضمن ما ارتأوا إبان بعثتهم استحضاره إلى مصر، وبعد ذلك كانت زيارتهم لمحطة تجارب زراعة الأناناس القريبة من سنغافورة، ثم معمل لحفظ الأناناس، وقد ساءهم ما رأوا به من تقطيع الأناناس في العراء وباستخدام الأيدي، إذ كان بذلك عرضة للتلوث، وإن كان يتم تعقيمه في مرحلة تالية من خلال وضع العلب الخاصة به بعد تعبئتها في مراجل يغلي ماؤها لمدة نصف ساعة. وأشارت البعثة إلى ما يحدث في بريطانيا بشأن ما يصدر إليها من ذلك المنتج، حيث توضع ملصقات على العلب الخاصة به تنسب فيها الصناعة إلى الإنجليز، مع إن القائمين بها في الحقيقة صينيون، وبرءوس أموال صينية.(٥٢) وهذا في الواقع إجراء طبيعي، مع ما كان

معروفًا من اعتبار المستعمر لمناطق احتلاله وما عليها بمثابة ممتلكات تابعة له.

وقد زارت البعثة كذلك محطة التجارب القريبة من كوالا لامبور، وهناك شاهد أعضاؤها مزارع عديدة، من بينها نخيل الزيت، وأشاروا في هذا الصدد إلى نبات "هيدنوكاريس هويتيانا"، الذي يستعمل الزيت المستخرج من بذوره في علاج البرص، وكذا نخيل "الفوفل" الذي تشكل من ثماره بعد خلطها بأشياء أخرى مضغة يشيع استعمالها في جزر الهند الشرقية، وفي الملايو، وفي جزيرة سيلان بشكل واسع، خصوصًا بين الفقراء، ويُعرف عنها إفادتها للثة، وعلاجها لمرض الزحير (الدوسنتاريا).(٥٣)

وأخيرًا كانت مغادرة البعثة لسنغافوره إلى مقصد آخر لها، وقد سجلت شكرها الوافر لما لاقته من اهتمام جَمٍّ من جانب السادة العلويين، وفي مقدمتهم من ذكرناهما آنفًا، ونوهت في هذا الصدد بالحفل الذي أقامه لها بمنزل إبراهيم بن عمر النادي الأدبي العربي، الذي ضم العديد من الجاليتين العربية والهندية وغيرهما، وقد فاضت فيه خطب المتحدثين بذكر مصر وفضلها وفضل ملكها.(٥٤)

سيلان.. المحطة الأخيرة

وصل أعضاء البعثة كولومبو Colombo عاصمة سيلان– كانت حينذاك إحدى المستعمرات التابعة للتاج البريطاني، وكان قد نفي إليها زعماء الثورة العرابية عقب الاحتلال البريطاني لمصر– صباح ٢٢ نوفمبر ١٩٣٣، وفي مدينة كاندي Kandy– تبعد عن كولومبو بحوالي ١٠٠ كم– التي وصلوها في اليوم نفسه، حضر إليهم في المساء دياس Dias المساعد الخاص لمدير الزراعة، ومعه مفتش الزراعة بيرس Pieris، وتم الاتفاق على برنامج الزيارة ليشمل الحديقة النباتية، وبعض محطات التجارب، ومدرسة الزراعة، ومزرعة كبيرة للكاكاو..إلخ.(٥٥)

وعلى الفور، ومنذ صباح اليوم التالي، بدأت البعثة تنفيذ برنامجها، فذهب أعضاؤها بصحبة المستر دياس إلى الحديقة النباتية ببرادينيا Peradeniya التي تبعد عن كاندي بحوالي ٦ كيلو متر تقريبًا، وقد حرصوا، كعادتهم، على الإحاطة بمختصر لتاريخها، الذي سجلوه بتقريرهم عن البعثة، فبعد ذكر مساحتها البالغة ١٤٦ فدانًا، وبعض معلومات أخرى تتعلق بالأحوال الجوية للموقع، كانت إشارتهم إلى تاريخ الإنشاء الذي يعود إلى عام ١٨٢٢ على يد الكسندر مون Alexander Moon، وذلك بمكان حدائق ملوك كاندي الأقدمين، وأبرز من تولو إدارتها، كجورج جاردنر George Gardener، وثويتس

Thwaites الذي استمر بها لمدة ٣٠ عامًا ابتداء من عام ١٨٤٩، فنظمها واعتنى بها حتى اشتهرت في العالم كمعهد علمي، كما أنشأ بعض ملحقاتها، كحديقة هاكجالا Hakgala النباتية التي كانت في مبدأها مزرعة لتجارب الكينا– وهي أشجار يستخرج منها بعض العقاقير التي يستخدم بعضها في أغراض طبية عدة– ثم صارت تضم فيما بعد الكثير من النباتات الأخرى المختلفة، وحديقة هنراتجودا Heneratgoda التي ابتدأت بتجربة زراعة المطاط، وتدريجيًا أخذت تزرع بها نباتات أخرى مختلفة، وهنري ترايمن Henry Trimen منشئ المتحف الاقتصادي للنبات، والحدائق الفرعية ببلدتي بادوللا Badulla وأنوراد بورا Anuradha Pura، وويليس Willis الذي اتسعت في عهده دائرة الأعمال الفنية بها. وتطرق أعضاء البعثة من ذلك إلى الإشارة إلى ما تحتويه الحديقة من مجموعات كبيرة من الأشجار، كأشجار الظل، والخشب، والنخيل..إلخ، فضلًا عن قسم خاص بتكاثر أشجار الفاكهة وتحسينها.(٥٦)

وبمناسبة الفاكهة، لفت أعضاء البعثة إلى ما يعترض زراعتها بسيلان من صعوبات، كعدم اتباع الأهالي للطرق الفنية في الزراعة والتكاثر، وصعوبة المواصلات، وسرقة المحصول، فضلًا عن إغارة الغربان والخفافيش وغيرها من طيور أخرى..إلخ، وأُشير إلى أنواع الفواكه المختلفة التي تزرع هناك، ومواصفات كل منها، ومواعيد الزراعة والإثمار..إلخ.(٥٧)

وكان من ضمن ما زاره أعضاء البعثة بالحديقة النباتية متحف النبات الاقتصادي، فكان عبارة عن بناء صغير مكون من طابقين، الأول يحتوي على الأنواع المحفوظة من الفواكه، وأنواع الخيزران، والنباتات الليفية وما يصنع منها، والصموغ التي تستخرج من الأشجار، أما الثاني، فمخصص لأنواع الأخشاب التي تنمو أشجارها هناك.(٥٨)

ووفق برنامج الزيارة، قامت البعثة بزيارة المدرسة الزراعية، والتي تقع بالقرب من الحديقة النباتية، وهي مدرسة ابتدائية داخلية، والتعليم فيها عملي، وملحق بها لذلك أرض زراعية، ومحل لتربية المواشي، ومعمل للألبان، ومكان لتربية الدجاج، ويتمرن طلاب المدرسة على فلاحة البساتين في الحديقة النباتية.(٥٩)

وكان مما اهتمت به البعثة خلال الزيارة، التعرف على ما هو منوط بمصلحة الزراعة بسيلان من اختصاصات، متمثلة في الإشراف على المحاصيل الزراعية، وإرشاد المزارعين إلى أفضل الطرق في الزراعة والتسميد واختيار البذور، والقيام بإنشاء محطات التجارب لشتى المحاصيل. وكانت البعثة قد زارت

بعض تلك المحطات، كمحطة بنالاندا التي تزرع أرزًا وموالح وباباز وأناناس، ومحطة بلوهرا المزروعة قطنًا وأناناسًا.[٦٠]

كما عُنيت البعثة كذلك بالوقوف على ما يزرع من محاصيل مختلفة، سواء كانت غذائية، كالأرز بأنواعه، والذرة، والخضروات، أو ما يسمى بمحاصيل مزروعة بمساحات واسعة، مثل جوز الهند، والشاي، والمطاط..إلخ.[٦١]

وكان من أهم ما تضمنه برنامج البعثة زيارة مزرعة كبيرة للكاكاو، وهو ما تم بالفعل، حيث زارت البعثة أكبر مزرعة للكاكاو هناك، والبالغ مساحتها ٧٠٠ فدان، وهي تبعد عن كاندي بحوالي ١١ كم تقريبًا، وتتبع إحدى الشركات الإنجليزية. ولما كان توقيت الزيارة يصادف جني المحصول بالمزرعة، فقد تابعت البعثة كافة ما يمر به من إجراءات حتى يكون جاهزًا في النهاية للاستخدام.[٦٢]

وبنهاية زيارة سيلان تكون البعثة قد أدت مهمتها التي خرجت من مصر لأجلها، ومن ثم كانت مغادرتها لكولومبو في ٢٩ نوفمبر ١٩٣٣ لتصل إلى بورسعيد في ٨ ديسمبر ١٩٣٣[٦٣]، بعد رحلة استغرقت ثلاثة أشهر ونصف الشهر تقريبًا، وقد استحضرت معها عشرات، بل مئات من الأشجار الحية والبذور[٦٤] لتجربتها بمصر والاستفادة بما يثبت نجاحه منها في التربة المصرية

٢- بعثة فلسطين عام ١٩٤٤

كان إيفاد هذه البعثة إلى فلسطين بناء على قرار مجلس إدارة الجمعية الزراعية الملكية في ٢ مايو ١٩٤٤، وذلك بغرض الوقوف على التقدم الزراعي بفلسطين، وزيارة محطات التجارب الفنية التي انشئت هناك.[٦٥] وقد جاء تشكيلها من محمد زكي الإبراشي (رئيسًا)، وعضوية فؤاد أباظة[٦٦]، وإبراهيم فهمي، وسليمان عثمان أباظة، وعبد المجيد رضوان، وبطرس مقار(من أعضاء مجلس إدارة الجمعية)، وأحمد محمود، وعبد العليم عشوب، وإسماعيل عثمان أباظة(من رؤساء أقسام الجمعية)، وأسندت السكرتارية الفنية إلى أحمد محمود.[٦٧]

وفي ٢٥ مايو كان سفر البعثة إلى الأراضي الفلسطينية، ليبدأ برنامجها في اليوم التالي مباشرة، وهو البرنامج الذي قُسم إلى عشرة أيام تنتهي في ٤ يونية، الذي غادرت فيه البعثة فلسطين للعودة إلى مصر.[٦٨]

وكانت البداية في يافا، وبعد تناول الغداء ببلديتها، والذي كان بدعوة من تلك البلدية لأعضاء البعثة، بدأ التجوال في ضواحيها، واجتازت البعثة نهر العوجا إلى بعض بساتين الحمضيات، وبعض أصناف الفاكهة الأخرى، وكان من أهم ما أثار انتباههم هو اعتماد تلك البساتين في ريها على الآبار الارتوازية – وهو أمر ذو كلفة مادية غير يسيرة – رغم مجاورتها لنهر العوجا، وقد تبين أن سبب هذا هو أن ذلك النهر مُعطى امتياز استغلاله لإحدى الشركات التي تقوم باستخدام مياهه في شئون الري وإمداد بعض المدن بمياه الشرب.(٦٨) والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا هو: ما دامت هناك تكلفة مادية للري، سواء من الآبار الارتوازية أو من النهر المذكور كما هو موضح، فلماذا الاعتماد على الآبار من الأساس؟ وللإجابة على ذلك يمكن القول بوجود فارق مادي بين مصدري الري المذكورين – الآبار والنهر– فيما يتعلق بالتكلفة المادية، والذي يبدو أنه كان كبيرًا، خاصة إذا علمنا أن مجرى نهر العوجا منخفض عن الأراضي المحيطة به، فكان الري منه لذلك يستلزم رفع مياهه بالطلمبات، ومن ثم كان الاعتماد في ري البساتين المشار إليها على الآبار سالفة الذكر.

وفي اليوم الثاني للبرنامج – ٢٧ مايو ١٩٤٤– زارت البعثة أكثر من مكان، وقد بدأت بمزرعة تجارب الحمضيات في صرفند الواقعة على بعد ١٢ كم من يافا، وهي واحدة من تسع محطات تتبع قسم البساتين بدائرة الزراعة والغابات في فلسطين، وقد وقفت على تاريخ إنشائها الذي يعود إلى عام ١٩٣٥– وكانت قبل ذلك تزرع بالحبوب والترمس– ومساحتها البالغة ١٥٠ دونمًا – الفدان المصري يعادل ٤ دونم تقريبًا– والغرض من إنشائها، المتمثل في استعراض وعمل اختبارات عن جميع المسائل الخاصة بالحمضيات وأنواعها المختلفة، وإن كان يتبع تلك التجارب بعض الاختبارات عن أصناف الفاكهة الأخرى، وشاهدت البعثة العديد مما هو قائم من تجارب وما يتعلق بها من تفاصيل مختلفة أوضحتها كاملة فيما كُتب لاحقًا من تقرير عن نشاطها، وقد استفادت خلال هذا كثيرًا من وكيل مدير قسم البساتين أ.جور Gore,A. الذي رافقها في تجوالها داخل المزرعة.(٧٠)

وانتقلت البعثة بعد ذلك إلى مزرعة نموذجية لمزارع البرتقال في فلسطين خاصة بعبد الرحمن بك التاجي، وهي عبارة عن مجموعة بساتين بوادي حنين على بعد ٢٠ كم من يافا، ومساحتها تبلغ نحو ٣٧٠ دونمًا، وقد أحيط الأعضاء بنظام الري بها، والذي يتم من خلال بئر ارتوازي كما هو معهود هناك بالنسبة لمزارع البرتقال، والتي يطلق لذلك على الواحدة منها اسم "بيارة"، وأنواع البرتقال الموجودة، فضلًا عن

بعض أنواع من الفاكهة الأخرى، وما يُعنى بزراعته كذلك من خضر وبطاطس..إلخ، وقد لبت البعثة دعوة صاحب المزرعة وأنجاله لتناول الغداء معهم.(٧١)

وبوادي حنين أيضًا كانت زيارة البعثة لمزرعة نموذجية أخرى للبرتقال، وهي خاصة بشكري بك التاجي، والذي بالإضافة إلى كونه مزارع حمضيات، هو نقيب مزارعي الثمار الحمضية للعرب في فلسطين، الأمر الذي أفاد البعثة كثيرًا، حيث أمدها بكثير من المعلومات الزراعية عن نشأة بساتين البرتقال في فلسطين وتطوراتها عبر الثلاثين عامًا الأخيرة، كما أوقفها على الأزمة التي تمر بها زراعة الحمضيات وتجارتها وكسادها منذ قيام الحرب العالمية الثانية، وهو الكساد الذي لمست البعثة بعض مظاهره فيما ارتأته من تكدس الثمار على الشجر بلا قطف، وكذلك وجود أكوام كبيرة منها ملقاة لا تجد من يبتاعها.(٧٢)

ثم تأتي زيارة البعثة في اليوم ذاته لمزرعة نموذجية ثالثة، والمتمثلة في بساتين زهدي بك أبو جبين ببيت دجن القريب من يافا، وقد أعجبت البعثة بنظامها وما يبذل من عناية في خدمتها ورفع مستواها، غير أنه كان مما لفت النظر بصفة خاصة ما شُوهد لأول مرة من طريقة لمعالجة الضعيف من شجر البرتقال، والذي رئي أهمية تجربته بمصر، فقد كان من المعتاد أن الشجرة التي يبدو عليها مظاهر الضعف ويصبح من المستحيل علاجها يتم قلعها وغرس غيرها في مكانها، ولا يُحصل على ثمر من تلك الشجرة الأخيرة قبل عدة سنوات. أما في بستان أبو جبين هذا فكان يتم زرع عدد من شتلات النارنج – قد يصل إلى أربعة – حول الشجرة المريضة، ثم توصل الشتلات بساق الشجرة من أسفل بطريق اللصق، مع ملاحظة أن يكون مسمار اللصق من معدن النحاس، أو يربط على الالتحام برباط أومت، فلا يكون المسمار بذلك لازمًا، وعلى هذا النحو تمد شجيرات النارنج الشجرة الأصلية بالغذاء والقوة، وبذلك يمكن الحصول منها على كمية من الثمر، فإذا ما اشتدت الشجيرات المساعدة وأصبحت جزءًا ثابتًا من الساق يمكن الاختيار بين الإبقاء على الشجرة الأصلية إذا صلح حالها أو قطعها وتطعيمها بعين من جديد على الأصل الذي أصبح قويًا، وبذلك تتوفر أربع أو خمس سنوات مثمرة كانت تذهب سدى لو لم تستعمل هذه الطريقة. ومن المهم بمكان الإشارة إلى ما لاقته البعثة من تكريم من جانب صاحب المزرعة من خلال ما أقامه لها من حفل حضره علية القوم، فضلًا عن القنصل العام للمملكة المصرية.(٧٣)

وفي مساء ذلك اليوم زارت البعثة نادي الاتحاد الفلسطيني العربي الإنجليزي، بناء على دعوته لها(٧٤)،

لتنتهي بذلك أعمال اليوم الثاني من برنامج البعثة.

وفي صباح يوم ٢٨ مايو – اليوم الثالث للبرنامج– غادرت البعثة تل أبيب ويافا متجهة إلى نابلس، وهناك زارت معامل صابون أحمد الشكعة، والبلدية، ثم طائفة السامرية اليهودية بتلك المدينة.(٧٥) وقد عادت بعد ذلك إلى مدينة طولكرم التي كانت قد مرت بها وهي في طريقها إلى نابلس، وهناك كانت زيارتها لمدرسة خضوري الزراعية، وكان في استقبالها أكرم الركابي مدير المدرسة، ومن خلال ما أمد به البعثة من معلومات حول المدرسة تبين أنها إحدى مدرستين أنشأتهما الحكومة من هبة كان قد قدمها أنس خضوري من يهود العراق – أُنشئت هذه المدرسة للعرب عام ١٩٣١ أما المدرسة الأخرى فأُنشئت عام ١٩٣٤ بجبل طابور وكانت خاصة باليهود– وهي تتسع لنحو ٧٠ تلميذًا داخلية، والتعليم فيها عمليًا مع بعض محاضرات عن الزراعة وفروعها، وذلك بهدف تخريج شبان قادرين على العمل في أراضيهم على أحدث النظم. ويُختار من بين تلاميذها نحو عشرة كل عام، فيتلقون بعد إتمام دراستهم منهجًا في فن التعليم لمدة عام، وذلك بهدف قيامهم بعد ذلك بتدريس مواد الزراعة في المدارس الريفية الموجودة بكثير من القرى. وقامت البعثة من جانبها بتفقد المدرسة، فمرت بمكاتبها ومعاملها وحقولها، وقد وقفت على ما تُعنى به من تربية الأبقار، والأغنام، والماعز، والدجاج، وما تضمه من مصنع للألبان، والذي كان لا يستعمل إلا قليلًا لقلة إنتاج اللبن في ذلك الوقت.(٧٦)

وبعد مغادرة البعثة لمدرسة طولكرم، اتجهت إلى بساتين راضي بك النابلسي بطولكرم، والتي تُعنى بزراعة الحمضيات والحلويات والأشجار الخشبية، وقد أعجبت البعثة بما عليه المزرعة من مستوى راق، والذي دل على ما يبذله صاحبها من مجهود كبير.(٧٧)

واتجهت البعثة بعد تلك المزرعة، إلى قرية شويكة القريبة من طولكرم، وكان مما زارته هناك مدرستها، وجرى استقبالها من عدد كبير من أعيان وأهالي القرية، فضلًا عن طلاب المدرسة وناظرها الذي يتقدمهم، والذي، حسبما جاء في تقرير البعثة، سبق له الحضور إلى مصر منذ بضع سنوات – تقريبًا عام ١٩٣٦– في بعثة المعلمين الزراعيين التي أوفدتها حكومة الانتداب، وجالت البعثة، وتعددت مشاهداتها، التي كان من بينها البستان الملحق بالمدرسة، فوقفت على ما يحتويه من أشجار مثمرة عديدة تشمل الزيتون والتفاح وغير ذلك من نباتات حقلية أخرى، وذلك من أجل تدريب الطلبة على أعمال الزراعة والبستنة وتربية

الأشجار، حيث تقوم استراتيجية الحكومة على جعل التعليم القروي ذا صبغة زراعية، بحيث يُعد التلاميذ للاشتغال في بساتينهم وحقولهم أو حقول قراهم بعد إتمامهم للتعليم الابتدائي مع قسط من التعليم الزراعي العلمي. وفيما له صلة، أُوقفت البعثة على وجود نحو ٢١٣ بستانًا ملحقة بالمدارس القروية العربية، علاوة على ١٢٠ أخرى خاصة بالمدارس اليهودية، وجميعها تحظى بمساهمة دائرة الزراعة بالحكومة في مدها بالبذور والشتلات والأشجار المثمرة وأنواع الخضروات وبعض الأدوات الزراعية البسيطة.(٧٨)

ومن المهم بمكان القول بأن السياسة التعليمية آنفة الإشارة، والمتبعة بالمدارس القروية، كانت سياسة معروفة في ذلك الوقت بكل الجهات الخاضعة للاستعمار بالمنطقة، والذي كان يهدف من ورائها، فضلًا عن تحقيق أغراضه الاقتصادية، إلى انعدام وجود البيئة الثقافية التي تفرزها أنواع التعليم الأخرى، وبالتالي إمكانية ظهور من يطالبون بحقوق بلادهم المسلوبة، بل وبرحيل الاستعمار ذاته. ومن المؤسف حقًا أنه كان يوجد من أبناء تلك البلدان من ذوي الأملاك من كان يؤيد هذه السياسة، من منطلق تحقيقها لمصالحهم الخاصة، فضلًا عما يرونه في غيرها من خطر اجتماعي يهدد مراكزهم . وجدير بالإشارة أن تقرير البعثة لا يُتبين منه ما إذا كانت تلك السياسة المتبعة بالمدارس القروية العربية بفلسطين كانت متبعة كذلك بالمدارس الخاصة باليهود أم لا، وإن كنا من جانبنا نستبعد ذلك، في ضوء قراءتنا حول التعليم في فلسطين إبان الانتداب البريطاني.(٧٩)

وكان مما أشارت إليه البعثة بالنسبة لقرية شويكة ما ارتأته من عودة الاهتمام بزراعة الزيتون في تلك المنطقة، بعد أن كانت أراضيها قد جُردت من أشجاره في ظل ما تعرضت له البلاد من نكبات الحرب العالمية الأولى، وكذلك قلة ما صار يُزرع بأطيانها من البطيخ بينما كانت تعتمد عليه في السابق بشكل أساسي، وقد علمت البعثة من أحد الأهالي من العرب أن ذلك راجع إلى انتشار زراعة البطيخ في مصر وإقامة الحواجز الجمركية.(٨٠)

وبعد أن ضَيَّف أهالي شويكة أعضاء البعثة بمضيفة القرية، جاءت مغادرتهم لزيارة مزرعة حسن أفندي المقدادي بطولكرم، المتخصصة في إنتاج الخضر والبذور الجيدة المنتقاة منها فضلًا عن الأشجار المثمرة، وكان في استقبالها بتلك المزرعة صاحب المزرعة وأخواه حسني وخليل، وهم من عائلة عربية عريقة، تلقوا التعليم الزراعي بفرنسا، وبعد التجوال بالمزرعة والإعجاب بما شاهدته بها، ثم حضور الحفل

الذي أقيم لها في حضور كثير من الأعيان، غادرت البعثة طولكرم عائدة إلى يافا وتل أبيب.(٨١)

ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى ما ألمح إليه رئيس البعثة في حديث له مع وكالة الأنباء العربية من حدوث تقدم بالزراعة في فلسطين بعد زيارته آخر مرة لها عام ١٩٣٣، وما يوجد بمصر من ميل إلى استثمار الأموال في مشروعات وصناعات زراعية بها وغيرها من بلاد عربية أخرى حال توفر الرغبة لدى تلك البلاد في ذلك، معربًا عن أن المجال بعد الحرب سيكون فسيحًا للتعاون في تلك الشئون، وأن المستقبل بالنسبة لها سيكون باهرًا(٨٢)، لكن ذلك كما هو معلوم لم يتحقق، حيث لم تكن البلدان العربية قد انتهت بعد من التقاط أنفاسها بعد نهاية الحرب العالمية الثانية حتى دخلت في أزمة جديدة، وهي الأزمة الخاصة بالقضية الفلسطينية.

ومع اليوم الرابع للبرنامج – ٢٩ مايو– استهلت البعثة أعمالها بزيارة معهد أبحاث "رحبوط" وملحقاته، وهو معهد أنشأته الوكالة اليهودية بفلسطين عام ١٩٢١، للقيام بالأبحاث، والإرشاد والتطبيق، فضلًا عن التعليم الزراعي بالاشتراك مع الجامعة العبرية بالقدس من خلال كلية الزراعة التي أُنشئت به عام ١٩٤٢، وهو يتكون من ثمانية أقسام فنية هي: الزراعة، والبستنة، والنباتات الطبيعي والحمضيات، وكيمياء التربة، وتربية الحيوان، وأمراض النبات، والحشرات، وأخيرًا القسم الاقتصادي وتجهيز الخطط، والذي يرأسه رئيس المعهد بنفسه لأهميته الكبيرة كما يستنتج من مسماه، حيث يختص برسم الخطط لإنشاء المستوطنات والإقطاعيات، وطرق التنظيم والبناء والري، ويستمد مشورته من نتائج الإخصائيين في المعهد والوكالة اليهودية، فهو باختصار:"القلب النابض للحياة الزراعية والاقتصادية لليهود".(٨٣) وقد وقفت البعثة على الأنشطة المختلفة لأقسام المعهد المذكورة، وعرضت لها بشيء من التفصيل فيما أعدته من تقرير.(٨٤)

ومن ملحقات المعهد التي زارتها البعثة، المزرعة المعروفة باسم مزرعة القبيبة، وهي أُنشئت لغرض إقامة التجارب والتطبيقات المختلفة، وتقوم ضمن ما تقوم به على تربية الماشية والبقر الحلوب، وكان مما شاهدته البعثة بها الورشة الخاصة بصناعة الآلات، التي تستخدم في الزراعة ومتعلقاتها– وقد أعرب رئيس المعهد من جانبه للبعثة عن استعداده لإعطاء الجمعية الزراعية بعض الماكينات التي ترغب في الحصول عليها بتكاليفها– والعديد من التجارب الخاصة ببعض أنواع البقر والماعز والأغنام، فضلًا عن تجارب واسعة النطاق على زراعة المراعي الصيفية والشتوية، وكان من بينها البرسيم المصري الذي كانت زراعته

تجود حينذاك بفلسطين.[٨٥]

كذلك زارت البعثة في ذات اليوم معهد "زيف"، وهو مؤسسة قائمة بمعهد رحبوط، لكنه مستقل عنه تمامًا، ويعود تأسيسه إلى عام ١٩٣٤ ليكون معهدًا للأبحاث البحتة فقط، لا علاقة له بمسائل التعليم والتطبيقات الأخرى التي تعنى بها الجامعة العبرية أو معهد أبحاث رحبوط، وتتشعب أعماله إلى ثلاثة أقسام هي: الكيمياء الزراعية، والبكتريولوجيا الفنية، والكيمياء التركيبية، وقد وقفت البعثة على التفاصيل المتعلقة بنشاط كل قسم من هذه الأقسام.[٨٦]

ولا بد أن نسجل هنا أن تلك الأنشطة وغيرها لليهود قد تمت على حساب الشعب الفلسطيني وأرضه ومقدراته التي نُهبت منه تحت سمع وبصر سلطة المحتل البريطاني، ولم يكن ذلك بخاف على أحد، وبالطبع البعثة، ومع ذلك جاء تقريرها خاليًا من أية إشارة إلى هذا، والسبب ربما يعود إلى تجنبها الخوض في أمور سياسية ليست من اختصاص المؤسسة التابعة لها، وهي مؤسسة غير حكومية على نحو ما هو معروف، خاصة وأن لهيب الحرب العالمية الثانية – وبريطانيا المحكمة لقبضتها على مصر وفلسطين كانت أحد أهم أركانها– لم يكن قد انطفأ بعد.

وواصلت البعثة نشاطها في اليوم ذاته، فزارت وبصحبتها المدير العام لدائرة الزراعة في فلسطين مستوطنة كفار واربورك، الواقعة على بعد نحو ٢٥ كم شرق رحبوط، وهي– وفق ما ارتأته البعثة– تتكون من إقطاعيات مساحة كل منها ٢٥ دونمًا (نحو ستة أفدنة)، وتقطنها– الإقطاعية– عائلة من المهاجرين اليهود، تقوم باستغلالها في إنتاج اللبن وزراعة العلف للماشية وبعض الخضر، وإنتاج البيض من دجاج اللجهورن[٨٧]، وبكل إقطاعية منزل به غرفتان أو ثلاثة ومطبخ وصالة، بالإضافة إلى جرن، واسطبل لإيواء أربع بقرات على الأكثر، وحظيرة للدجاج الذي لا يُسمح بزيادة عدده عن ثمانين دجاجة، على اعتبار أن المُزارع لا يجب أن يُكَّون ثروة، حيث إن الهدف هو أن يَكون إيراد المزرعة كافيًا لحاجته المعيشية وحسب. وهذه المساحة جميعها مقسمة إلى جزئين: الأول ومساحته نحو ٢١ دونمًا، ويضم المنزل والحظائر، ويروى ريًا صناعيًا، وتقوم العائلة اليهودية بزراعته بنفسها، أما الجزء الآخر، والبالغة مساحته نحو ٤ دونمًا، فيكون مشاعًا مع مثيله مما يتبع الإقطاعيات الأخرى بالمستعمرة، ويعتمد في ريه على المطر. بيد أنه كانت هناك مشكلة قائمة بالمستوطنة، وهي عدم وجود دورة للمراحيض بالمنازل، وقد

أشارت البعثة إلى ما يوجد من محاولات لتذليلها.(٨٨) وأخيرًا، وبعد انتهاء الزيارة، عادت البعثة إلى يافا، حيث حضرت مأدبة الشاي التي أُقيمت تكريمًا لها من جانب شركة الصناعات الكيماوية الإمبراطورية للشرق.(٨٩)

ومع اليوم الخامس– ٣٠ مايو– من برنامج البعثة تأتي زيارتها لمدرسة ميكفا إسرائيل ومحطة أبحاثها الواقعة على بعد ثلاثة كيلو مترات من يافا، وهي، وفقًا لما أُحيط به الأعضاء من معلومات، تم إنشاؤها من قبل الاتحاد الإسرائيلي العالمي عام ١٨٧١، بغرض تعليم الشبان اليهود العلوم الزراعية علميًا وعمليًا وإعدادهم ليكونوا مزارعين فنيين مهرة، وقد أصبح التعليم فيها بعد سنوات طوال جامعًا للجنسين، ويقبل بها من أتم الدراسة الإعدادية لمدة ثماني سنوات، أو خمس سنوات في مدارس جمنزيم – وهي نوع من المدارس الثانوية– ويكون السن عند القبول بين ١٦ و١٨ سنة، ومدة الدراسة ثلاث سنوات، يدرس فيها الطلبة العلوم الزراعية، ثم ممارسة أعمال الحقل بأنفسهم، واستمر التعليم فيها طويلًا باللغة الفرنسية قبل أن يصير باللغة العبرية، ويتلقى الطلبة بشكل اختياري دروسًا في اللغات الإنجليزية أو الفرنسية أو العربية. هذا ولا يقتصر دور المدرسة على التعليم، وإنما تشتغل بالبحوث أيضًا، ويلحق بها حقل مساحته ٢٦٠٠ دونم، مخصص لأغراض مختلفة، كما يوجد بها مصنع لنبيذ العنب، ومزرعة للدجاج، ومعمل كبير للتفريخ، ومصنع ألبان، ومنحل .. إلخ، وقد جالت البعثة بجميع تلك الأماكن، ووقفت على أنشطتها المختلفة، وهو ما سجلته مفصلًا في تقريرها عن الزيارة.(٩٠) ولا يخفى هنا إلى أي مدى بلغ استغلال اليهود لفلسطين بكل إمكانياتها رغم عدم قانونية ذلك، لكن أنى يكون للقانون معنى في ظل تسلط القوة وهيمنة المغتصب.

ثم جاءت زيارة البعثة بعد ذلك لمصنع عيسى للصناعات الزراعية الواقع بالقرب من تل أبيب، فأحاطت بأبرز أعماله المتمثلة في عصر البرتقال، وعمل المربات من أصناف الحوامض، وحينما ينتهي موسم الحمضيات يقوم بأعمال أخرى، كتجفيف الطماطم وعمل الصلصة، وصناعة الفاكهة المحفوظة، وشراب جريب فروت، والمشمش والبرقوق والتفاح، ويتوقف عن العمل لمدة شهرين فقط – أكتوبر ونوفمبر– من أجل أعمال الصيانة، وهو وحدة قائمة بذاتها، فيفي نفسه بكل احتياجاته.(٩١)

وبعد أن غادرت البعثة المصنع، اتجهت إلى بلدة رمات غن، حيث منزل رئيس بعثة الحكومة

المصرية للتفتيش على البرتقال المعد للتصدير إلى مصر، وذلك لحضور حفل الشاي الذي كان قد دعاها إليه، وقد انطلقت بعده في اتجاه حيفا شمالًا.(٩٢)

وفي صباح اليوم السادس للبرنامج- ٣١ مايو- قامت البعثة من حيفا إلى عكا، وهناك زارت مسجد الجزار، ثم انتقلت إلى محطة التجارب الزراعية(٩٣) الواقعة في سهل عكا الساحلي شمال فلسطين، وكان في استقبالها كل من ستدمان ديفيز Stedman Davis وكيل دائرة الزراعة في فلسطين، وكامرون Camron مدير المحطة، وهناك كان وقوفها على كثير مما يخص المحطة من معلومات، كتاريخ الإنشاء الذي يعود إلى عام ١٩٢٦، وكانت مساحتها حينئذ ١٠٠ دونم، ثم أخذت تتسع حتى بلغت ٤٠٠٠ دونم عام ١٩٣٦، وما تُعنى به من أنشطة، مثل البستنة والزراعة وتربية المواشي والدواجن والخضر والغابات ومكافحة الحشرات، وقيامها بإمداد المستفيدين بالمعلومات والشتلات والبذور المنتقاة والدجاج والأرانب للتربية، فضلًا عن السماح بوثب طلائقها المنتقاة على حيواناتهم.(٩٤) هذا وقد طافت البعثة بأقسام المحطة، كقسم الزراعة والحقل، والبستنة، والغابات، وتربية الحيوان..إلخ، وكان لها مشاهداتها التي ضمنتها تقريرها(٩٥)، وهي المشاهدات التي إن كانت تعكس من خلال ما ورد بشأنها من تفاصيل، التقدم الذي كانت عليه المحطة محل الزيارة، فإنها تكشف في الوقت ذاته، مع المعلومات سالفة الإشارة، مخططات الصهيونية، وكيف كانت ماضية في تنفيذها على ما لم تتوقف عن اغتصابه من أراضي الفلسطينيين، للوصول إلى هدفها الأسمى، وهو إقامة الدولة اليهودية.

وخلال العودة من المحطة السابقة، قامت البعثة بزيارة مزرعة طاهر بك القرماني بقرية أبطن القريبة من حيفا، وهي مزرعة نموذجية تهتم بشكل أساسي بتربية الماشية لإدرار اللبن، وعصر السمسم وما يتبعه من صناعة الطحينة والحلاوة الطحينية، وعصر الزيتون، فضلًا عن زراعة الفواكه، وبعض الحاصلات، ومنها الدخان الذي يحظى بعناية خاصة فيها، وقد أُوقفت البعثة على كثير من التفاصيل المتعلقة بزراعته في هذه المزرعة وغيرها من نواحي أخرى بفلسطين، وما يعاني المنتج منه من قلة الجودة، وبالتالي ركوده وعدم تصديره إلى الخارج، والجهود التي تبذلها الشركة المهتمة بصناعته، والتي يرأسها صاحب المزرعة هذه، من جهود لتحسين مستواه كي يجد سوقًا رائجة خارج فلسطين. وفي نهاية الزيارة حضرت البعثة وليمة الغداء التي دعاها إليها صاحب المزرعة، وكان من بين حضورها حاكم اللواء، وقائمقام حيفا، ووكيل دائرة الزراعة والغابات في فلسطين، ومدير محطة التجارب في عكا.(٩٦)

وفي الطريق إلى حيفا جاءت زيارة البعثة لمصنع تنوفا للألبان ومنتجاتها، وهو من مؤسسات شركة تنوفا اليهودية القائمة على تصريف كل منتجات المراكز الزراعية(٩٧)، وقد شاهدت البعثة ما هو مزود به من أجهزة حديثة جعلته يفوق نظرائه في الدول التي تزدهر فيها صناعة الألبان، الأمر الذي أثار انتباه رئيس البعثة الإبراشي باشا، حيث كان يعتقد في ضوء سابق زيارته للدنمرك أن ما شاهده هناك يعد أحسن ما وصلت إليه الصناعة، وقد أوضح مدير المصنع من جانبه السبب في ذلك، والذي يعود إلى ما لدى الإدارة من حرية في اختيار الأجهزة دون التقيد ببلد معين، بينما تحتم الدنمرك استعمال الأجهزة الدنمركية.(٩٨)

ومع ما أثاره ذلك التقدم الذي عليه المصنع من انتباه من جانب البعثة، فقد علق أعضاؤها أهمية أكثر على شئ آخر، وهو الفكرة التي دعت إلى إنشائه، والمتمثلة في تنظيم التصريف لمنتجات المستوطنات اليهودية، وذلك بدلًا من توجه كل منتِج بحصاد أرضه رأسًا إلى الأسواق ليعرضها، فلا يحصل على الأسعار المناسبة.(٩٩)

وقد وقفت البعثة خلال وجودها بالمصنع على نظام العمل به، إذ كان يتسلم حليب كل مستوطنة على حدة، وتُقرر القيمة لأصحابه بعد اختباره على أسس معروفة، ثم يمر بعدة معاملات إلى أن يتم تعبئته، أو تحويله إلى صناعة الزبد أو القشدة أو الجبن بأنواعه المختلفة. وعلمت البعثة أن بيع الحليب للاستعمال الغذائي قبيل الحرب كان أكثر ربحًا من صناعته جبنًا أو زبدًا، وذلك لعدم إمكان مزاحمة المستورد منهما، بيد أنه بعد نشوب الحرب انعكس الحال، حيث تعذر الاستيراد، ومن ثم ارتفعت الأسعار، الأمر الذي سمح بمكسب أكثر مما لو بيع الحليب طازجًا. وقد سُنت في ظل ذلك بعض القواعد المنظمة لاستهلاك الحليب، والتي تضمنت عدم إعطائه إلا للعائلة التي كانت تتناوله في السابق– وهذا معناه أن لو عائلة لم تكن كذلك ثم صار لديها رغبة في تناول اللبن يكون لا حق لها فيه– وبمقدار نصف لتر للعائلة المكونة من ثلاثة أشخاص إلى خمسة، وقد يسمح بزيادتها بعض الشيء للمرضى منهم، بناء على توصية الطبيب. أما بالنسبة للشرش الناتج من عملية استخراج الجبن والزبد، فيُصَّنع لاستعماله غذاء للكتاكيت والدجاج، ويخضع توزيعه هو الآخر لبعض الشروط، فلا يُعطى إلا للمزارع الذي يقدم حليبًا بكمية محددة.(١٠٠)

وبمناسبة ما اطلعت عليه البعثة من إحصاءات أمكنها من خلالها التعرف على كميات الحليب التي

تنتجها المستوطنات اليهودية في فلسطين سنويًا، أشارت إلى صعوبة تقدير كمية الحليب التي تنتج سنويًا في المزارع العربية أو المستعمرات غير اليهودية هناك، والسبب كما ذكرت هو أن إنتاج الحليب في المزارع العربية وتداوله وصناعته يكون بشكل فردي، ويكون في الغالب في المنازل بالصورة المتبعة في مصر.(١٠١)

وأخيرًا كانت عودة البعثة إلى حيفا، وقد حضرت في فندق وندسور الكائن بها مأدبة الشاي التي دُعيت إليها من قِبل الغرفة التجارية العربية، وكان من بين حضورها قنصل مصر في حيفا وأعيان المدينة.(١٠٢)

وفي صباح اليوم السابع – أول يونية– تحركت البعثة من حيفا إلى سهل مرج ابن عامر الذي يقطع الهضبة الوسطى لفلسطين، والمقدرة مساحته بنحو ٣٥١ ألف دونم، منها ٣٠٣ ألف صالحة للزراعة، وهناك شاهدت ما استولى عليه اليهود من مساحات كبيرة أنشأوا فيها المستوطنات والقرى وغيرها، ووقفت على تفاصيل خاصة بهذه المستوطنات، تتمثل في قيام الوكالة اليهودية بإنشائها، ثم إقطاعها إلى المهاجرين من اليهود، وتوفير الأموال المبدئية التي يستعينوا بها على معيشتهم، وأعمال التشييد والتعمير، واقتناء الآلات الزراعية والحيوانات اللازمة لفلاحة الأرض حتى تغل المزرعة، وما يراعى بشأن المساحة بحيث تكون بالنسبة لكل مستوطنة بالقدر الذي يكفي أولًا لمعيشة القاطنين، والفائض بعد ذلك من الإنتاج يتم استخدامه في أعمال التطوير ودفع ما على المستوطنة للوكالة اليهودية من دين وفقًا للآجال الطويلة المحددة، فضلًا عن الإيجار السنوي الرمزي وأية التزامات أخرى، ونظام المستوطنات يقوم على وجود نوعين منها: شيوعية، وتعاونية، والأولى يقوم قاطنوها بجميع أعمالها على الشيوع، من غير تملك لأحد منهم أو حصوله على ربح خاص، ويكون جميعهم على قدم المساواة في جميع الواجبات والحقوق، وتقوم بتسيير العمل بمختلف أنواعه لجان خاصة يتم تشكيلها، ولا إجبار لأي أحد على استمرار الإقامة، فيرحل من يريد متى شاء. أما الأخرى – التعاونية– فتتشكل من إقطاعيات يخصص كل منها لعائلة تقوم باستغلالها، وينشئ صاحب الإقطاعية المنشئات اللازمة ويزيدها، وينمي من أعداد ماشيتها، وفقًا لحالة رخائه، ومع ذلك لا تعد الإقطاعية ملكًا يمكنه التصرف فيه بالبيع أو الوصية، غير أن الأبناء يرثونها عن الآباء.(١٠٣)

وقد زارت البعثة نموذجًا لكل من تلك المستوطنات، مستوطنة جفت الشيوعية، ومستوطنة نهلال

التعاونية، والأولى، وفقًا لما سجلته البعثة عنها، تبلغ مساحتها ٥٠٥٠ دونمًا، ويتعاون سكانها على العمل بمختلف أنواعه، والذي تشكل لجان تنفيذية لإدارته، ففيما يتعلق بالحالة الاجتماعية يقوم الأهالي بتسليم أطفالهم الرضع بعد ولادتهم مباشرة إلى حضانة، ثم ينقل هؤلاء الأطفال إلى الروضة عند بلوغهم العامين، وفيها يبيت كل أربعة منهم في غرفة، وبعد ذلك ينقلون إلى مدرسة المستوطنة التي يظلون بها حتى سن السادسة عشر، وساعات الدراسة ست، منها اثنتان في الحقل، وبعد الظهر يسمح لهم بزيارة أهلهم، وبعد تلك المدرسة يرسلون إلى أخرى أرقى خارج المستوطنة لمدة عامين، ثم يعودون للاشتغال بالمستوطنة كأفراد من أفرادها على الشيوع. وبالمستوطنة دار للسينما والمسرح، ويجرى العرض مرة كل شهر بالنسبة للسينما، بينما للمسرح كل شهرين. ويقوم بعمل الملابس للسكان فرقة خاصة، وكذلك أعمال الغسيل والكي، ويسمح بتشكيل في ألوان الملابس، وخصوصًا للسيدات، ما دام نوع القماش واحد، أما الغذاء فيقدم حسب ما تقرره اللجنة التنفيذية. وكان للبعثة مشاهداتها بمزرعة المستوطنة، حيث يُهتم بزراعة الفاكهة، وبخاصة التفاح، فضلًا عن تربية الماشية لإنتاج الألبان، والدجاج لإنتاج البيض. وأخيرًا جاءت مغادرة البعثة إلى المستوطنة الأخرى، مستوطنة نهلال التعاونية.(١٠٤)

ومستوطنة نهلال هذه تقع في مرج ابن عامر بأقصى طرفه من الغرب، وهي عبارة عن إقطاعيات مساحة الواحدة منها ١٠٠ دونم (٢٥ فدانًا)، وقد قدمت الوكالة اليهودية لمستوطنيها قروضًا لآجال طويلة بفائدة ٢%، ويدفع صاحب الإقطاعية إيجارًا اسميًا قدره جنيهان سنويًا، ويحق له توريثها لورثته، لكن ليس له حق البيع أو التنازل عنها للغير، ويقوم بزراعة وفلاحة أرضه بنفسه وأفراد عائلته، ولا يستأجر عمالًا من الخارج مطلقًا. وتوجد شركة تعاون خاصة بالمستوطنة تتم من خلالها عمليات البيع والشراء لغلات الإقطاعيات وحاجياتها، كما يوجد جامع للألبان من الإقطاعيات المختلفة، والذي يقوم بدوره باختبار الحليب بالنسبة لكل إقطاعية، وخلطه بعد ذلك، ثم إرساله لمصنع تنوفا، وذلك بعد الاحتفاظ بكمية لازمة لاستهلاك المستوطنة. ويشترك أهل المستوطنة في الماكينات الزراعية الكبيرة ووسائل النقل التي يعجز الفرد عن شرائها، كما يتعاونون في مكافحة الأمراض والحشرات الزراعية، وتوجد بالمستوطنة هيئة منتخبة تُجدد سنويًا للإشراف على المسائل العامة، كالتعليم، وتدبير المياه، وتحصيل ما للوكالة اليهودية من مستحقات مالية..إلخ.(١٠٥)

وقد قامت البعثة خلال وجودها بنهلال بزيارة مدرسة نهلال الزراعية للبنات، وهي تقبل الطالبات

البالغات من العمر ١٤ عامًا، وتتسع لعدد ١٢٠ طالبة، غير أن هذا العدد لم يكن موجودًا بأكمله وقت الزيارة؛ نظرًا لالتحاق بعض الطالبات بالجيش[١٠٦]، ومدة التعليم بالمدرسة ثلاث سنوات، يتلقى فيها الطالبات الزراعة وفروعها، فضلًا عن أعمال المنزل، ويدرسن ضمن ذلك، وخلال سنتهن الأولى على وجه التحديد، التاريخ والآداب، وخلال تجوال البعثة بالمدرسة، شاهدت الطالبات وهن يقمن بإعداد طعام الغداء في المطابخ المزودة بأحسن الأدوات.[١٠٧] ويبدو هنا جليًا كيف كان اهتمام اليهود قائمًا على كافة المستويات استعدادًا لقيام الدولة، والتي لم يمر منذ ذلك الوقت أكثر من أربع سنوات حتى أُعلن عن قيامها بالفعل، وذلك بالطبع في ظل تواطؤ دولي كان محوره الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، والذي لا يزال يمارس حتى الوقت الراهن ضد فلسطين وحقوق شعبها المغتصبة.

وبعد ذلك انقسمت البعثة إلى فريقين، أحدهما توجه إلى القدس مباشرة عن طريق نابلس، بينما توجه الآخر عن طريق الناصرة إلى طبرية وبحيرتها الشهيرة، ثم الحمة وينابيعها الحارة المعروفة بخواصها الشفائية، حيث تحتوي على نسبة كبيرة من الكبريت بينما تقل نسبة ملح الطعام إلى حد ما، ثم وادي بيسان ومشروع روتنبرج الخاص بتوليد الكهرباء من مياه نهري الأردن واليرموك[١٠٨]، والذي ذُهب إلى قدرته على توليد أربعة أضعاف ما تحتاج إليه فلسطين من الكهرباء، وهو ما ارتأى معه أعضاء الفريق أنه يعد أهم المشروعات في فلسطين.[١٠٩] ومن المعروف أن الصهاينة قد استفادوا من هذا المشروع في بناء كثير من المستوطنات على الأراضي الفلسطينية بعد نزع ملكيتها من أصحابها الفلسطينيين، وإقامة العديد من المصانع، بينما حُجب عن الفلسطينيين توليد الكهرباء للإنارة وغيرها من الأغراض الزراعية والصناعية.[١١٠] بيد أن هذا لم تذكره البعثة بتقريرها، منعًا للتطرق من جانبها إلى الشأن السياسي على نحو ما أشرنا سلفًا.

وعمومًا، فبعد انتهاء البعثة من جولاتها بوادي بيسان، كانت عودتها عن طريق جنين فنابلس إلى القدس في مساء اليوم المذكور.[١١١]

وفي اليوم التالي صباحًا – ٢ يونية– جاءت زيارة البعثة للجامعة العبرية بالقدس، وقد أحيطت بموجز عنها، يتضمن تاريخ إنشاءها الذي يعود إلى عام ١٩١٨، حيث وضع حجر الأساس، وافتتاحها رسميًا عام ١٩٢٥[١١٢]، وما تضمه من كليات للآداب، والعلوم، والطب، والزراعة، فضلًا عن منشئات أخرى

خاصة بالإدارة والمكتبة والمدرج والنادي..إلخ، وما تكلفه كل ذلك من أموال وتبرعات اليهود البالغ قيمتها ٤٨٤٥٠٠ جنيه، وتمويل ميزانيتها السنوية القائم على تبرعات اليهود(ثلثا الميزانية)، وأجور التعليم وفوائد بعض الصناديق الخاصة(الثلث)، ومجانية التعليم التي استمرت حتى عام ١٩٣٠، حيث صار برسوم بلغت قيمتها جنيهًا واحدًا للطالب خلال عامي ١٩٣١و١٩٣٢، لترتفع بعد ذلك إلى نحو عشرة جنيهات، بخلاف رسم المعامل، ولغة التدريس المتمثلة في اللغة العبرية، ما عدا بعض دروس اللغات، كالعربية والإنجليزية والفرنسية. وقد وقفت البعثة خلال زيارتها للجامعة على ما تُعنى به بجانب التعليم من أبحاث علمية وأدبية(١١٣)

وقد أدى أعضاء البعثة صلاة الجمعة بالمسجد الأقصى، وكان في استقبالهم وكيل المجلس الإسلامي أمين عبد الهادي، وزاروا هناك الصخرة المشرفة.(١١٤)

هذا وقد اتجه رئيس البعثة بعد ذلك إلى قرية رام الله التي تبعد عن القدس بنحو ١٥ كم شمالًا، من أجل زيارة بساتين الفاكهة غير الحمضية بها، وكان برفقته حسني المقدادي المهندس الزراعي، وأحمد القاسم من دائرة التعليم الزراعي، وشُملت بالزيارة مدرسة القرية، التي يحظى التعليم الزراعي فيها بنصيب وافر كغيرها من المدارس القروية.(١١٥)

وفي يومها قبل الأخير بالأراضي الفلسطينية – ٣ يونية– غادرت البعثة القدس في التاسعة صباحًا إلى بيت لحم جنوبًا، لزيارة موطن ميلاد السيد المسيح عليه السلام، وعقب ذلك، واصلت مسيرها إلى الخليل لزيارة مقام نبي الله إبراهيم، ويوسف الصديق، وغيرهما من الأنبياء. ثم جاءت زيارتها خلال رحلة العودة لبرك سليمان الواقعة في واد ضيق بين الخليل وبيت لحم، وكانت مدينة القدس منذ حكم سليمان تستمد مياهها من تلك البرك بواسطة قناة تعرف بقناة السبيل، وقد ظل ذلك مستمرًا لفترات طويلة إلى أن أنشئ نظام آخر صارت المدينة بمقتضاه تعتمد على الينابيع العليا لنهر العوجا. واختتمت البعثة يومها في القدس بحضور الحفلة التي أُقيمت في المساء تكريمًا لها من قِبل القنصل العام للمملكة المصرية بتلك المدينة.(١١٦)

وفي الثامنة من صباح ٤ يونية – اليوم العاشر والأخير للبرنامج– جاء تحرك البعثة من القدس في اتجاه الشرق إلى البحر الميت، وكان من أهم ما زارته هناك منطقة أعمال استخراج مركبات ذلك البحر

من البوتاسا التي تستخدم كسماد، كما تدخل في كثير من الصناعات، والبرومين الذي يستعمل متحدًا مع معادن مختلفة في أعمال الفوتوجرافيا والمواد الطبية، فضلًا عن أعمال أخرى، كتركيب بعض مواد الصباغة، والكيمياء التحليلية، وعمل بعض المركبات التي تضاف على البنزين في حالة استعماله في السيارات. وشاهدت البعثة منشئات شركة البوتاسا الفلسطينية التي تقوم بكل ذلك، والمتمثلة في الأحواض والمصانع، بالإضافة إلى ما أقيم من مساكن للموظفين، وأخرى للعمال، والمدرسة، والنادي الذي يضم صالة للمطالعة ومكتبة وحمامات بالماء العذب..إلخ. وفي النهاية غادرت البعثة متجهة إلى ما يعرف بمستوطنة بيت عرابا الشيوعية.(١١٧)

وكان للبعثة مشاهداتها بمستوطنة بيت عرابا هذه، الواقعة في منطقة مجاورة للبحر الميت، فوقفت على ما يُعنى به هناك من أنشطة مختلفة، يتقدمها تربية الماشية، وإدرار اللبن، وأشارت في تقريرها بهذا الصدد إلى ما يجرى من أعمال بالمستوطنات في فلسطين بصفة عامة بهدف التطوير في ذلك المجال، وكان مما ذكرته منها، التلقيح الصناعي لإناث الحيوانات بجانب ما يتم من تلقيح بالسفاد، حيث تستخدم نطفة واحدة من حيوان واحد في تلقيح مئات من الإناث الموزعة في المستوطنات، وقد درست طرق حفظ المادة وبقائها صالحة للتلقيح في فترة النقل الداخلي، بل والنقل الخارجي بالطائرات إذا استدعى الأمر الحصول على لقاح من بلدان أجنبية. وقد نتج عن هذا فوائد عديدة، كالانتفاع على أوسع نطاق بالذكور الأصيلة، كما صار من غير الضروري وجود عدد كبير من الذكور، ومن ثم التقليل من استهلاك العلف والغذاء.(١١٨)

وخلال عودة البعثة إلى القدس عرجت على أريحا الواقعة في المنطقة الجنوبية من غور الأردن، وكان من أبرز ما زارته بها محطة التجارب الزراعية والبستانية التابعة للحكومة، وقد وقفت على ما تقوم به هذه المحطة من دور في إمداد المزارعين بالإرشادات والمساعدات.(١١٩)

وأخيرًا، كانت عودة البعثة إلى القدس في منتصف اليوم تقريبًا، لاستقبال من لبوا دعوتها لمأدبة الغداء التي كانت قد أعدتها لكل من استقبلها خلال رحلتها أو قدم لها المساعدة في تحقيق برنامجها والنجاح في مهمتها، وكان في مقدمة المدعوين قنصل المملكة المصرية ومدير مصلحة الزراعة وموظفيها ورؤساء البلديات وأعضاؤها ومدير الصناعات الكيماوية الإمبراطورية وكبار موظفيها ومديرا رحبوط وميكفا.(١٢٠) وقد سجلت البعثة في تقريرها عن الرحلة جهود كل هؤلاء، فذكرت، على سبيل المثال، لشركة الصناعات

الكيماوية الإمبراطورية مشاركتها في وضع برنامج الرحلة، وتخصيصها سيارة من قِبلها لتكون تحت تصرف الأعضاء، فضلًا عن سيارتين كانت البعثة قد استأجرتهما بواسطتها، وقيامها بأعمال البنوك للبعثة، وما قام به حسني المقدادي من دور في الترتيب لزيارة الأماكن العربية والهيئات الحكومية والبلديات، ومرافقته للبعثة طوال فترة وجودها، وقيامه على تدبير إقامتها وكل ما يحتاجه أعضاؤها، والتسهيلات الجمة التي قدمتها حكومة فلسطين، وما قامت به من تكليف بعض ضباط البوليس ورجاله بمرافقة البعثة في تنقلاتها، وترحيب الصحافة الفلسطينية بالبعثة والنشر عنها..إلخ.[١٢١]

وعمومًا، فقد غادرت البعثة القدس في الخامسة مساء إلى محطة اللد، وقد وُدعت هناك– سواء في القدس أو اللد– بمثل ما قوبلت به من حفاوة وترحاب عند مجيئها، وجاء وصولها للقاهرة في صباح ٥ يونية ١٩٤٤.[١٢٢]

ومن خلال ما سبق يبدو جليًا ما كان عليه حال الزراعة وما يتصل بها من أنشطة مختلفة بفلسطين، والمجهود الوافر للبعثة الذي وقفت من خلاله رغم قصر المدة– نحو عشرة أيام– على أقصى ما يمكن أن يقف عليه زائر في مثل تلك الفترة، وهو ما يظهر بجلاء من التقرير الذي وضعته، متضمنًا لكل الزيارات والمشاهدات المختلفة خلالها[١٢٣].

٣– بعثة شمال أفريقيا وإسبانيا عام ١٩٥٠

نشأت فكرة تلك البعثة من التقرير الذي كان قد قُدم إلى رئاسة الجمعية الزراعية الملكية من عضو مجلس إدارتها عطا عفيفي عن زيارته التي قام بها إلى إسبانيا في أبريل ١٩٤٨، والمتعلق بشئون الزراعة هناك وطرق تربية الخيول العربية بقرطبة، حيث اقُترح باجتماع مجلس الإدارة في ٣٠ ديسمبر ١٩٤٨ إرسال الجمعية لبعثة من قبلها إلى إسبانيا، وتمت بالفعل الموافقة لمن يرغب من أعضاء مجلس الإدارة، على أن يتحمل مصاريف الرحلة، بينما تدفع الجمعية مصاريف من تنتدبه من قبلها، لكن رئي تأجيل التنفيذ إلى ما بعد الانتهاء من المعرض الزراعي الصناعي لعام ١٩٤٩.[١٢٤] وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٤٩ وافق مجلس إدارة الجمعية على ما تقدم به مديرها العام فؤاد أباظة من أن تكون الرحلة في أبريل من العام التالي، بحيث يمكن للبعثة زيارة سوق (معرض) أشبيلية التي ستعقد في هذا التوقيت ومشاهدة القسم الزراعي بها، وأن تكون الرحلة كذلك عن طريق شمال أفريقيا، فيتسنى للبعثة زيارة تونس والجزائر

ومراكش، ومن ثم تكتمل الفائدة المرجوة.[١٢٥]

وعلى إثر ذلك، بدأت الجمعية في اتخاذ ما هو مطلوب من إجراءات، كوضع البرنامج، وتشكيل البعثة، والذي ضم كلًا من رئيس الجمعية محمد طاهر، ووكيلها محمد بهي الدين بركات، ومديرها العام فؤاد أباظة، وإبراهيم فهمي- وقد انتدبته الجمعية عنها مع فؤاد أباظة- وعطا عفيفي، ومحمد توفيق خليل، ومحمود إسماعيل أباظة، وعبد المجيد رضوان، وبطرس مقار، وإسماعيل عبد الرازق، من أعضاء مجلس الإدارة [١٢٦]، كما تم إبلاغ سفيري إسبانيا وفرنسا بالأمر، واللذين جاء ردهما بالترحيب بعد التخابر مع حكومتيهما، واستطاعت الجمعية الحصول من وزارة الخارجية على جوازات خاصة للأعضاء تسهيلًا لسفرهم وتأدية مهمتهم.[١٢٧]

تونس

غادرت البعثة في ٤ إبريل ١٩٥٠ بالطائرة إلى تونس، وكان في استقبالها لدى الوصول كل من مدير مصلحة الشئون العقارية أمير الأمراء سيدي محمد سعد الله، والذي انتدبته الحكومة التونسية لمرافقة البعثة خلال فترة وجودها بتونس، ومدير مكتب وزير الزراعة أحمد المسقاوي، ومعهما حسن عبد الوهاب(وزير القلم من ١٩٤٣ حتى ١٩٤٧ لدى محمد الأمين الأول آخر بايات تونس). وانتقلت البعثة إلى فندق Tunis Palace، حيث تناول أعضاؤها طعام الغداء، ثم غادروا في الثالثة بعد الظهر وبرفقتهم أمير الأمراء سيدي محمد سعد الله.[١٢٨]

وقد سجلت البعثة في تقريرها عن الرحلة، وقبل الخوض فيما قامت به من زيارات، بعض ملاحظات سريعة عن البلد الذي نزلوا به وأهله، فأشارت إلى ما يشق مدينة تونس من شوارع حديثة يجري فيها الترام كوسيلة جديدة للانتقال، وما تلبسه الطبقة المتعلمة بها وبسواها من المدن من زي أفرنجي، بينما تلبس بقية الشعب الجلباب والعباءة، والتزام النساء المسلمات هناك بالحجاب، وحرصهن على قلة الظهور بالمدينة، ووحدة العملة التونسية المتمثلة في الفرنك، المساوي في قيمته للفرنك الفرنسي تمامًا، ومقدار ما يساويه الجنيه المصري حينذاك في كل منها، والبالغ ألف من الفرنكات.[١٢٩] ثم جاءت الإشارة إلى زيارات اليوم الأول التي شملت الوزير الأول (رئيس الوزراء)، ووزير الزراعة، والمتحف الأثري، ومسجد الزيتونة، وسراي الباي- محمد الأمين آخر بايات تونس- التي يتواجد بها في المواسم والأعياد لاستقبال وفود المهنئين،

واللقاء بحسن عبد الوهاب في منزله، حيث كانت استضافته للبعثة في نهاية زياراتها لذلك اليوم.(١٣٠)

أما عن اليوم الثاني– والأخير– للبعثة بتونس، فقد بدأته بزيارة المقيم العام الفرنسي الذي رحب بها كل الترحيب، وبعد انتهاء الزيارة غادرت إلى حديقة البلفدير، التي هي عبارة عن متنزه عام يبعد عن المدينة بحوالي كيلو مترين، ويتصل بها بترام كهربائي، وتبلغ مساحته٢٦٠ فدانًا تقريبًا، وقد نوهت البعثة بالمناظر الجميلة المحيطة بالمكان، والتي ذهبت إلى أنها تكاد تشبه في بهجتها مناظر سويسرا.(١٣١)

وبعد ذلك جاء اتجاه البعثة إلى مدينة حمام الأنف لمقابلة الباي في قصره، وهناك لاقت كل الترحيب والاهتمام بها، والذي بلغ حد الإنعام على أعضائها بأكبر نيشان تونسي، وهو نيشان الافتخار، حيث قلده الباي لكل من فؤاد أباظة وإبراهيم فهمي من الطبقة الأولى، ولبقية الأعضاء من الطبقة الثانية، وقد أثنى على مصر وملكها، منوهًا بالوحدة التي يرعاها فاروق بين الشعوب العربية، وهو ما قابله فؤاد أباظة نيابة عن البعثة والجمعية الزراعية بالشكر والدعاء للباي.(١٣٢)

وتمثلت المحطة التالية– والتي كانت في رأينا بمثابة البداية العملية لمهام البعثة في تونس– في مزرعة السيد الطاهر بن عمار رئيس الغرفة التجارية التونسية، والتي تقع على بعد ٢٠ كيلو مترًا من تونس، وتبلغ من المساحة ٢٢٠٠ فدان، وفيها وقفت البعثة على زراعاتها التي تضم كل ما يزرع بتونس من أنواع المزروعات، وإن كانت تعتمد بشكل خاص على الزيتون، كما شاهدت ما يوجد بها من آلات للحرث وتمهيد الأرض، والتي لا تخرج في مجموعها عما يستعمل في مصر، وأنواع الماشية المقتناة للعمل، ولفتت البعثة إلى شيء مهم أحاطها علمًا به صاحب المزرعة، وهو أن أجور العمال بتونس تحدد بقانون، وهي تكفل لهم عيشة كريمة، كما أن العلاج لهم وعائلاتهم وتعليم أولادهم مجانًا.(١٣٣) وهذا إن صح وكان بهذه الصورة، فإنه يعكس سبقًا للطبقة العاملة بتونس فيما يتعلق بحصولها على تلك الحقوق مقارنة بغيرها من الدول التي كانت تعيش نفس ظروفها، والتي لا تزال الطبقة العاملة في بعضها حتى الوقت الحاضر رغم التحرر من نير الاستعمار تكافح في سبيل نيلها.

وانتقلت البعثة بعد ذلك إلى إحدى المحطات التابعة لوزارة الزراعة، وهي محطة سيدي ثابت لتربية الحيوانات، والتي تهتم بإجراء الدراسات الفنية لتحسين أصناف الحيوانات، وبحث المسائل المتعلقة بالماشية وأغذيتها، والعناية بها وبألبانها، وتوزيع نتاجها على الطالبين، فضلًا عن نشر نتائج تلك الدراسات

والأبحاث على المهتمين للاستفادة منها، كما تُعنى كذلك بتربية البغال والخيول العربية، والأغنام، والدجاج بأنواعه المختلفة. وقد أبدت البعثة إعجابها بهذا النشاط، حتى إنها أعربت عن أسفها لعدم وجود محطة حكومية بمصر تعمل على نطاق واسع على هذا النحو، وتمنت اهتمام الحكومة بهذا الأمر. لكنها من جانب آخر سجلت أن الخيول العربية الموجودة لا يمكن اعتبارها من دم عربي نقي، بينما في مصر بمحطة كفر فاروق الخاصة بتربية الخيول العربية[١٣٤] لا يوجد سوى ما هو مطابق للصفات الحقيقية المعروفة للحصان العربي، مضيفة أنها لم تر مثيلًا لتلك المحطة في جميع البلدان التي زارتها.[١٣٥]

وقد غادرت البعثة سيدي ثابت إلى مزرعة خاصة برئيس جمعية الفلاحين الفرنسية دولوريم، والتي تُعنى هي الأخرى بتربية الحيوانات، سواء للعمل أو للألبان، وكان مما لفت أنظار البعثة هناك كمية الألبان التي تنتج يوميًا، حيث علمت أنها تصل في بعض الأحيان إلى ٣٠٠ كجم للبقرة الواحدة، الأمر الذي جعلها تكرر أسفها لعدم وجود نموذج كهذا في مصر بين كبار الملاك، واقترحت في تقريرها عن الرحلة على كل من الحكومة والجمعية الزراعية إنشاء هيئة للإرشاد عما يلزم للتربية، متمنية أن يكون ذلك حافزًا لكبار الملاك على الاشتغال بهذا النوع من العمل الزراعي المدر للأرباح.[١٣٦]

وكانت الزيارة التالية للبعثة إلى منوبة، من أجل مشاهدة عملية تخزين الحبوب[١٣٧] التي يقوم بها أحد المصانع هناك بشكل آلي، إذ ترسل إليه الحبوب فيتم تنظيفها، ثم فرزها إلى درجات يستعمل بعضها للتقاوي الخاصة، ثم تعقم لوقايتها من التسوس، وتحفظ لأصحابها لأي وقت يراد، لقاء ما يعادل من الفرنكات عشرة قروش لكل مائة كيلو، أو خمسة عشر قرشًا للأردب تقريبًا، وقد أشادت البعثة بما لتلك العملية من فوائد عظيمة، حيث يتمكن المزارعون من الحصول على أنواع ممتازة من الحبوب، فضلًا عن حفظ الحبوب من التسوس الذي غالبًا ما يصيبها عن وضعها بالمخازن الخاصة. وأعربت البعثة بهذا الصدد عن أسفها لكون الصوامع التي أقامتها الحكومة في مصر لهذا الغرض وتكلفت من أجلها مليونًا من الجنيهات تقريبًا لم تأت بالفائدة المرجوة، وتمنت لو أن الحكومة تقوم بدراسة هذا المشروع التونسي وتعمل على إدخاله بمصر، وكانت قد أشارت إلى تكاليف إنشاء المصنع التي لم تزد عن ١٠٠ ألف جنيه في البداية، ثم ارتفعت لتصل إلى ٤٠٠ ألف حينما تم توسعته لاحقًا بهدف زيادة طاقته الاستيعابية[١٣٨]، بما يعني أن تكاليف إنشاء مثيله لن تصل إلى نصف ما تكلفه بناء الصوامع المشار إليها. لكن يبدو أن هذا الأمر لم يلق اهتمامًا في مصر سوى من سنوات قليلة، حيث بدأت الدولة تولي اهتمامها لإنشاء

الصوامع الحديثة للحفاظ على ما يتوافر لديها من كميات كبيرة للقمح، والذي تعد مصر أكبر مستورد له في العالم كما هو معروف.

واختتمت البعثة يومها بحضور حفل الشاي الذي أقامه لها وزير الزراعة، ثم حفل آخر للعشاء كانت قد دُعيت إليه من قِبل المقيم العام الفرنسي، لتغادر بعد ذلك بالطائرة في ٦أبريل إلى الجزائر.(١٣٩)

الجزائر

وصلت البعثة الجزائر في ذات اليوم المذكور، وكان في استقبالها مندوبًا من الحكومة، والذي دعاها باسم الحاكم العام الفرنسي إلى حفل شاي حضره العديد من كبار الموظفين، وبعض كبار الأعيان، ومراسلو الصحف. وسرعان ما بدأت البعثة برنامجها منذ اليوم التالي، حيث زارت العديد من الأماكن، كمنطقة شيرا التي تبعد بنحو ٢٠ كم عن الجزائر، والتي تقوم الحكومة بإصلاحها لتوزيعها على المزارعين الذين لا يملكون أراض لزراعتها، ومصنع للدخان، ومزرعة للخضروات خاصة بأحد الفرنسيين المقيمين بالجزائر، وهو لورنت، والحديقة النباتية، ومنطقة تيازا المحتوية على بعض الآثار الرومانية، والتي تعد مصيفًا مهمًا للجزائريين..إلخ.(١٤٠)

وفي مساء ذلك اليوم، ألقى فؤاد أباظة كلمة من دار الإذاعة الجزائرية بناء على طلبها، أعرب فيها عن إعجاب البعثة بما ارتأته في يومها هذا من المزارع وحدائق الفاكهة والأعمال الزراعية المختلفة، مؤكدًا خلال ذلك على أهمية الاتصال الروحي والثقافي والتآلف بين الأمة العربية، والذي تأتي زيارة البعثة في إطاره، ومن منطلقه جاء ما توجه به من دعوة إلى زيارة مصر هي الأخرى من قبل أشقائها، وتطرق في عجالة إلى الأحوال الزراعية بمصر، فأشار إلى ما يوجد من اختلاف في وسائل الزراعة والري والمحاصيل بينها وبين بلاد شمال أفريقيا، والذي أرجعه إلى عدم وجود جبال منزرعة في مصر، كما ألمح إلى إنتاجها ما يكفيها بصفة عامة من المواد الغذائية حينذاك، وما تقوم به في الوقت ذاته من العمل على تخزين المياه في أعالي النيل لزيادة المساحة المنزرعة بها أمام ما تشهده من زيادة في عدد سكانها، وختم بالتنويه إلى تصاعد الاهتمام بإنشاء المصانع حتى صارت تغطي احتياجات البلاد في الاستيراد عدا الكماليات.(١٤١) ونرى من جانبنا عدم خلو هذا الكلام الأخير لفؤاد أباظة، وبخاصة ما يتعلق منه بالصناعة، من مبالغة ظاهرة، وإلا لما قامت الثورة في مصر بعد ذلك بأقل من سنتين ونصف؟

هذا ولم تنس البعثة تضمين تقريرها لمحة سريعة عن طبيعة الجزائر وأحوالها بصفة عامة، فأشارت إلى جمال موقع عاصمتها الجزائر، وما يطلق عليها لذلك، سواء من قِبل أهلها أو الفرنسيين، من اسم "باريس الصغيرة"، وميناءها الكبير، وحركة التجارة البحرية الواسعة، وحركة المسافرين المستمرة بينها وبين فرنسا يوميًا، ونظام الحكم القائم، والمختلف عن تونس، والذي من مظاهره وجود ممثلين نيابيين عن الشعب في البرلمان الفرنسي، بنسبة خاصة من المسلمين والفرنسيين المقيمين فيه، واعتبار الجزائر في ضوء ذلك جزءًا من فرنسا، وزي الجزائريين الذي تغلب عليه الفرنجة، فضلًا عن الطعام وبعض العادات الأخرى .. إلخ(١٤٢)

وفي ٨ أبريل غادرت البعثة العاصمة إلى مدينة تلمسان، وقد نزلت في الطريق إليها بأكثر من مدينة كان آخرها وهران التي التقت فيها الحاكم الفرنسي وبعض أعيان المدينة من الجزائريين، وجاء وصولها بعد ذلك إلى تلمسان، حيث قوبلت بالترحاب من رئيس وأعضاء البلدية هناك، وفي اليوم التالي، وبينما كانت على بعد كيلو مترًا من تلمسان في طريقها إلى فاس بمراكش، عرجت بالزيارة لمصنع للزيت وتخليل الزيتون، اللذين كانت تشتهر بهما تلمسان حينذاك (١٤٣)

مراكش

قضت البعثة يومها الأول بمدينة فاس في تلبية ما وجه إليها من دعوات استضافتها، فبعد وصولها اصطحبها مندوب الحكومة الذي كان في انتظارها إلى منزل حاكم فاس الفرنسي، وفي المساء جاء تناولها للعشاء بمنزل نائب السلطان هناك، والذي حضره لفيف من الوطنيين وكبار رجال مراكش، وكذلك حضور الحفل الذي دعاها إليه بمنزله القنصل البريطاني.(١٤٤)

وفي اليوم التالي– ١٠ أبريل– زارت البعثة معالم المدينة، كما تناولت الغداء بمنزل حاكمها، لتبارحها بعد ذلك في الثالثة مساء إلى مكناس التي تبعد عنها بحوالي ١٤٠ كم، وقد زارت في طريقها محطة حكومية للتجارب الزراعية، ومزرعة مساحتها حوالي ٢٠ ألف فدان لأحد الملاك الفرنسيين، بالإضافة إلى جمعية تعاونية تضم عددًا من الزراع، حيث تدار أملاكهم كوحدة واحدة، ويقسم إيرادها فيما بينهم بنسبة ما يمتلكه كل منهم وحالة أملاكه، وبعد وصولها للمدينة في مساء ذات اليوم نزلت بأحد فنادقها، ثم تناولت العشاء بمنزل حاكمها الفرنسي بناء على دعوة كانت قد تلقتها.(١٤٥)

وقد غادرت البعثة يوم ١١ أبريل إلى مدينة الرباط، وفي طريقها إلى هناك شاهدت العديد من المعالم، كالمدرسة البحرية، وهي خاصة بالمراكشيين، وفيها تخرج كثيرون وصل بعضهم إلى رتب عليا بالجيش الفرنسي، ومحطة حكومية لتربية الخيول، تبلغ مساحتها حوالي ٢٠٠ فدان، وقد نالت إعجاب البعثة لما هي عليه من ترتيب ونظام، فضلًا عما تضمه من حديقة ومتنزه يلعبان الدور المهم في تحفيز الموظفين على الإقامة بالمحطة، وكان من بين ما ارتأته البعثة من الخيول حصان يسمى "أبو سريع" قيل إنه استحضر من عائلة الطحاوية بمصر. وبعد الوصول إلى الرباط توجهت البعثة بالزيارة إلى المقيم العام، ثم مدير الفلاحة بوزارة الزراعة الذي تناولت معه الغداء، لتلتقي بعد ذلك بولي العهد الذي كان السلطان قد أوفده خصيصًا من مراكش لمقابلة البعثة، وقد راقها ما يتسم به من مناقب عديدة ذكرتها، فضلًا عما استشعرت منه من التطلع إلى اليوم الذي تحصل فيه مراكش على كامل استقلالها.(١٤٦)

وقد خرجت البعثة بعد انتهاء زيارتها لولي العهد إلى المدينة التي جالت فيها لبعض الوقت، وارتأت من خلال ذلك انقسامها إلى حيين: الرباط الجديدة، التي تضم دور الحكومة ومساكن الجالية الفرنسية، والرباط القديمة التي يسكنها أهل المدينة من العرب ومن إليهم. وقد ذهبت البعثة إلى أن المدينة، إنما تشبه في ذلك، مع فروق بسيطة، حي الأفرنج وحي العرب بمدينة الإسماعيلية.(١٤٧)

وغادرت البعثة في المساء إلى الدار البيضاء (كازابلانكا) التي تبعد بحوالي ١٠٠ كم، وهناك قامت بزيارة حاكمها، ثم تحركت بعده إلى تناول العشاء بأحد فنادق المدينة بدعوة من الغرفة الفلاحية.(١٤٨)

وفي اليوم التالي– ١٢ أبريل– سافرت البعثة بالطائرة إلى طنجة، وبعد الوصول وتناول الغداء، تنزه أعضاؤها في المدينة وفي الجبال المحيطة بها، والمدينة، كما سجلت البعثة عنها، لها أهميتها التي تنحصر في كونها طريقًا للعبور من مراكش إلى إسبانيا، وتعد، بحسب ذلك، سوقًا لتداول العملات بمختلف أنواعها واستبدالها.(١٤٩)

ومن طنجة، وفي ١٣ أبريل، غادرت البعثة إلى تطوان عاصمة مراكش الإسبانية، وهناك كان اللقاء بالخليفة السلطاني مولاي الحسن الذي حضر خصيصًا من مصيفه للقاء البعثة، وقد طاف بأعضائها في أرجاء قصره الفخم، والمبني على الطراز الأندلسي القديم، فكان لذلك– بالإضافة إلى ما يضمه من أثاث فاخر بعضه على الطراز العربي القديم وبعضه الآخر على الطراز الأوروبي الحديث– محل إعجابهم.

وفي المساء كانت عودة البعثة إلى طنجة، لتغادر في اليوم التالي– ١٤ أبريل– عبر بوغاز جبل طارق إلى إسبانيا.(١٥٠)

ولعلنا نلاحظ هنا أن نشاط البعثة في شمال أفريقيا كان نشاطًا بسيطًا إلى حد ما، ولا نعتقد أن ضيق الوقت كان السبب كما جاء مثلًا في تبرير عدم النزول إلى داخلية البلاد بتونس والاكتفاء بالجزء الساحلي فقط(١٥١)، إذ كان من الممكن الاستغناء عن زيارة أية أماكن سياحية والتركيز على كل ما له علاقة بشكل مباشر بعمل البعثة، ومن ثم فإن السبب الحقيقي في رأينا يكمن فيما ذكرته البعثة في موضع آخر من تقريرها(١٥٢) من أن أعضاءها حينما قصدوا تلك البلاد كانوا يعتقدون أنهم سيروا بلادًا لا تمتاز بشيء في نشاطها الزراعي– وهو ما ثبت لهم من خلال الواقع عدم صحته كما سجلت البعثة بنفسها– وهذا على ما يبدو ما جعلهم يميلون إلى قضاء بعض الوقت في المشاهدات السياحية، خاصة وأن أغلبهم كما سبقت الإشارة كانوا متحملين لمصاريف الرحلة وليس الجهة الباعثة.

إسبانيا

وصلت البعثة إلى مدينة الجزيرة الإسبانية يوم ١٤ أبريل، وكان في انتظارها لدى الوصول أحد موظفي وزارة الزراعة مندوبًا عن الحكومة، وبعد تناول الغداء بأحد فنادق المدينة بدعوة من الحكومة، جاء توجهها لزيارة منطقة جبل طارق الإنجليزية(١٥٣)، وذلك بتصريح خاص يعطى لدخول هذه المنطقة، وهناك شاهدت ما عليه المدينة من تحصين قوي، وما تزخر به من منشئات صناعية مخصصة للسفن الحربية والطائرات وغيرها من عتاد الحرب، كما وجدت أن كل سكانها من الجنود الإنجليز الذين يحتلونها، ومعهم عائلاتهم، بالإضافة إلى العمال المستخدمين في أعمال المصانع والورش، وسجلت البعثة أن المنطقة بصفة عامة منعزلة عن عالم إسبانيا ومحاطة برقابة يقظة للغاية.(١٥٤) وهذا كما هو معروف كان بحكم وضعها كمنطقة محتلة، ومحاولات إسبانيا التي لم تتوقف لاستعادة السيادة عليها.

وانطلقت البعثة بعد ذلك في اتجاه مدينة ملقا التي توجد على بعد ١٤٠ كم تقريبًا، وقد شاهدت في طريقها زراعات للقمح، والزيتون كثير الانتشار، والخروب، وبعض الأراضي المنزرعة قصبًا، والذي لوحظ أنه يقل جودة عن المنزرع بالأراضي المصرية، وقد نزلت البعثة إثر وصولها ملقا بفندق ميرامار الذي أمضت ليلتها به.(١٥٥)

إلى غرناطة

توجهت البعثة إلى غرناطة في ١٥ أبريل ١٩٥٠، وكان مما زارته في طريقها مصنعًا للسكر على بعد ١٢ كم من ملقا، وفيه شاهدت استخراج سكر القصب بأحدث الطرق، كما أحيطت علمًا بما يتم كذلك من استخراج السكر من البنجر بعد انقضاء موسم القصب وحلول موسم هذا المحصول، وأشارت بهذا الصدد إلى سالف جهود وزارة الزراعة في مصر لإدخال زراعة ذلك المحصول بها، والتي لم تكلل بالنجاح، معربة عن تطلعها إلى استئناف تلك الجهود ثانية، لعل يكون هناك من النتائج الإيجابية التي تتحقق هذه المرة.(١٥٦)

وقد زارت البعثة أيضًا مشتلًا حكوميًا تزرع به الأشجار الخشبية، والتي توزع على المصالح الحكومية وعلى المشتغلين بالزراعة مجانًا، وذلك بهدف زراعتها تحت إشراف الحكومة، وأشارت بتقريرها في هذا الشأن إلى أن تلك الأشجار جميعها من الأنواع الموجودة بمصر، والفارق هو أنها توزع بإسبانيا مجانًا تشجيعًا على زراعتها، بينما تعطى في مصر بما يحدد لها من أسعار.(١٥٧) ولا يخفى هنا نقد تلك السياسة المتبعة في مصر، وإن كان نقدًا مبطنًا.

واختصت البعثة بعد ذلك بزيارتها مصنعًا للأحذية، وقد وقفت فيه على تفاصيل تلك الصناعة القائمة على الكاوتشوك القديم (الكُهنة)، حيث كان يجمع بواسطة تجار مختصين، ثم تتم عملية إذابته بالمصنع، وتحويله بعد ذلك إلى مسحوق، إلى أن يصير في النهاية كاوتشوك حديث تصنع منه كل الأحذية الكاوتشوك، وكان أكثر الناس استعمالًا لتلك الأحذية الصناع والعمال والفلاحين، وقد أفادت البعثة بأن تلك الفكرة لا مثيل لها في مصر، وأنها تأمل في أن تحظى باهتمام رجال الصناعة فيها، ولفتت بصدد ذلك إلى مشروع مقاومة الحفاء الذي كان قد طرح منذ سنوات ونال اهتمام الملك فاروق(١٥٨)، مشيرة إلى ما تمنته من أن هذا المشروع لو كان قد أنتج للجمهور المصري مثل ما ينتجه المصنع الإسباني، لكانت مصر قد تغلبت على الحفاء في فترة قصيرة.(١٥٩) وهذا الرأي له بالطبع أهميته، لكنه لم يكن وحده بكاف لعلاج تلك المشكلة الاجتماعية التي كانت تشمل الجمهرة الغالبة في مصر، فبعض الفلاحين على سبيل المثال كانت لديهم أحذية ولا يلبسونها إلا في مناسبات بعينها، ويمشون في بلادهم وعلى الجسور والطرق العامة حفاة حتى لا تستهلك تلك الأحذية، كما أن البعض الآخر– ممن ليس لديهم– لو وُفرت لهم الأحذية

قد يبيعونها عقب نيلها! ومن ثم فإن الوسيلة الناجعة إنما تكون برفع مستوى السواد الأعظم من الشعب من خلال القضاء على الفقر والجهل معًا.(١٦٠)

وأخيرًا كان وصول البعثة في مساء اليوم إلى غرناطة، تلك المدينة التي وصفتها بأنها بديعة في مبانيها، وعليها مسحة من الفن المعماري العربي الجميل، وفي أهلها من الأخلاق والطباع ما يحببها إلى زائريها، وكان مما زارته البعثة ليلة وصولها جبل غرناطة، حيث الحديقة المعروفة بـ "جنة العريف"(١٦١) التي أنشأها العرب إبان حكمهم لإسبانيا، وقد ذهبت من هناك لمشاهدة الغجر المقيمين بسفح الجبل، والمعروفين بإحياء الأمسيات بحفلات الرقص والغناء، وأشارت في هذا الشأن إلى ما زُعم من جانب هؤلاء الغجر من انحدارهم من أصل فرعوني(١٦٢)، وإكرامهم لذلك لأعضاء البعثة بشكل وافر.(١٦٣)

وفي اليوم التالي– ١٦ أبريل– عادت البعثة إلى "جنة العريف"، التي وصفتها بأنها في نظامها وتنسيقها آية في الإبداع منذ زمن إنشائها، ولا يزال الإسبان يتعهدونها بما تحتاجه من إصلاح وتنسيق، ومنها انتقلت إلى "قصر الحمراء" المجاور لها، والذي يعود إلى عصر ملوك بني الأحمر حكام غرناطة(١٦٤)، وقد وقفت البعثة على كل تفاصيله ودقائقه، فكان إعجابها به أيما إعجاب، لما أودع فيه من جمال الفن العربي وحسن التنسيق، وألمحت باختصار في تقريرها إلى أهم ما يشتمل عليه من مبان، مشيرة في النهاية إلى أن القلم يعجز عن وصفه، وليس لمن يرغب في الوقوف على حقيقته سوى زيارته.(١٦٥)

وكان مما استرعى النظر في منطقة غرناطة، كثرة المحال المعدة لتخزين الدخان وتجفيف أوراقه، وقد علمت البعثة أنها أكثر البلدان الإسبانية شهرة في زراعته، حيث تزرع نحو ٧٠% من مجموع ما يزرع هناك من الدخان، تليها منطقة بلنسية، فقرطبة، وأشارت في هذا الصدد إلى ما تحظى به تلك الزراعة في إسبانيا بوجه عام من اهتمام كبير، حتى إنه توجد معاهد خاصة للأبحاث عن كل ما يتعلق بها وتحسين أنواع الدخان المنتج، وكان من نتيجة ذلك أن وصلوا به إلى ما يضارع أحسن الأنواع الموجودة في العالم. ودعت البعثة من جانبها بمناسبة ذلك إلى أهمية التفكير في زراعة الدخان بمصر واتخاذ خطوات جادة في هذا السبيل(١٦٦)، مشيرة إلى أن ما يقال عن أن الأموال الكثيرة التي تحصل عليها الحكومة من خلال ما يفرض على وارداته من جمارك أحد أهم أسباب منع زراعته، إنما يمكن التفاهم حوله وإيجاد حل يوفق بين مصلحة الحكومة ومصالح الزراع، بعد أن تُجرب زراعته ويُتأكد من أحسن أنواعه صلاحية بالبلاد.(١٦٧)

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن دعوة البعثة الموماً إليها لم تكن الأولى من نوعها، إذ كان هناك من ذهب مذهبها من قبل، ويُذكر في هذا الصدد يوسف نحاس الذي انتقد– في تقرير له طبع عام ١٩٢٦ بعنوان "مصر وزراعة الدخان"– قرار منع زراعة الدخان، مشيرًا إلى أنه أضاع على البلاد ثروة وفيرة، فكان لذلك من الأحرى بالحكومة أن تُعنى بأمره عنايتها بالقطن.(١٦٨) والمسألة كما هو معلوم لا يزال الجدل يتجدد بشأنها حين تثار من وقت لآخر.

وقد زارت البعثة بعد ذلك منطقة بها أراض سبق للحكومة استصلاحها وتوزيعها على صغار المزارعين مع ما قامت ببنائه بها من مساكن لهم، وكان القصد من الزيارة هو معاينة تلك المساكن، والتي وجدت على نوعين: أحدهما يتكون من طابق واحد، يحتوي على غرفتين ومكان للطبخ، فضلًا عن زريبة للمواشي، والآخر مبني من طابقين، ويحتوي على غرفتين في الطابق الأعلى، بينما تقع ملحقاته في الطابق الأرضي، والمساكن هذه وزعت على أساس المساحة التي تقوم كل عائلة على زراعتها، فأعطي المسكن ذي الطابقين للعائلة التي تزرع حوالي ٢٥ فدانًا من أراضي الري وضعفها من أراضي المطر، أما الآخر فكان للعائلة التي تقوم بزراعة نصف تلك المساحة. وقد لفتت البعثة إلى شيء في غاية الأهمية، وهو أن المستفيدين من هذا النظام لا يُتركون لأنفسهم، وإنما يعملون تحت إشراف هيئة حكومية تنظر في حاجياتهم، وتعمل على مساعدتهم على الاستمرار في إدارة تلك الأراضي بما يحقق الأهداف المرجوة منها. ونوهت في هذا الصدد بما سبق أن جرى في مصر من محاولة مشابهة عام ١٩١٢، حيث وزعت الأراضي على صغار المزارعين ببعض النواحي(١٦٩)، بيد أن هؤلاء تُركوا لأنفسهم دون إشراف أو مساعدة، مما كان سببًا في عدم نجاح المشروع.(١٧٠)

بين إشبيلية وقرطبة

غادرت البعثة غرناطة في ١٧ أبريل إلى إشبيلية التي وصلتها مساء اليوم ذاته، وقد التقت هناك حسبما كان متفق عليه بكل من محمد طاهر ومحمد بهي الدين بركات، لتكتمل هيئتها بذلك وفق التشكيل الذي تكونت منه في مصر. وقد بدأت نشاطها هناك منذ بداية اليوم التالي، فزارت مدرسة متوسطة للزراعة، وملحقاتها المتمثلة في مزرعة لتمرين الطلبة مساحتها ٤٥٠ فدانًا، ومحال خاصة بتربية الحيوانات والدواجن، فضلًا عن عدة ورش للتجارة والحدادة. وانتقلت بعد ذلك إلى معرض إشبيلية الذي حضرت حفل

افتتاحه، ثم مرت بأقسامه، والتي من بينها تلك الخاصة بالحيوانات، كالخيول والحمير والبغال والخنازير والثيران .. إلخ، وقد ارتأت من واقع مشاهداتها ما تحظى به تربية تلك الحيوانات من اهتمام كبير. وكان مما ألمحت إليه البعثة أن ذلك اليوم بإشبيلية إنما هو عيد قومي يعقد سنويًا في شهر أبريل، ويقصده بالملابس الوطنية سكان إشبيلية وما يجاورها، وهو تقليد حاز على إعجابها، وتمنت وجود ما يشابهه بالريف المصري، بحيث يجد الفلاح المكدود أيامًا في السنة يستمتع فيها بمباهج الحياة.(١٧١) وهذه الأمنية لمما يحسب بالطبع للبعثة، وكذلك كل من فاضت أدبيات تلك الفترة وما قبلها بمطالباتهم بالعناية بالفلاح الذي كان من أكثر المصريين تعاسة، وضرورة انتشاله من وهدة العسر والشقاء(١٧٢)، لكن كان من الصعب في الواقع أن تجد ناصرًا قويًا لها لتتحول إلى حقيقة، في ظل ما كان سائدًا حينئذ من طبقية غاشمة، لم تكن ترى وجودًا للمعنى الإنساني في حياة طبقة دنيا كطبقة الفلاحين والعمال.

وواصلت البعثة نشاطها بإشبيلية في اليوم التالي– ١٩ أبريل– فزارت مصنعين، أحدهما للأطباق الصيني وأدوات الشاي، والآخر للبلاط القيشاني، وقد ألمحت إلى أن بيوت إشبيلية وما يجاورها تكاد تكون جميعها معتمدة في حوائطها على ذلك القيشاني(١٧٣)، وهذا يفسر لنا ما جاء من طرفها– البعثة– من إشارة فيما سجلته عن الزيارة إلى وجود العديد من مصانع القيشاني المماثلة بجوار المصنع المزار.(١٧٤)

وكان من ضمن ما زارته البعثة كذلك في ذلك اليوم، الكازار أو ما يعرف بقصر إشبيلية الذي بُني في عهد العرب، وكان لها مشاهداتها لمكونات ذلك القصر، سواء بهوه الواسع وغير المسقوف المؤدي إلى داخله، أو قاعاته المختلفة الموشاة بالنقوش الجميلة، فضلًا عن حديقته ذات المستوى العالي من التنسيق والنظام، وهو ما حاز جميعه على إعجابها، وجعلها تصف القصر جملة بأنه غاية في الإبداع.(١٧٥)

وفي اليوم التالي –٢٠ أبريل– انطلقت البعثة إلى منطقة جيريز التي تقع على بعد ١٠٠ كم من إشبيلية، والمشهورة بزراعة محاصيل عديدة في مقدمتها العنب، وقد زارت هناك ضمن ما زارت مصنعًا كبيرًا للنبيذ ومشتقاته من أنواع الخمور، ووقفت على بعض تفاصيل خاصة بأنواع ذلك النبيذ، وطريقة تعبئته ونظام تخزينه.(١٧٦)

وانتقلت البعثة بعد ذلك إلى إحدى المناطق التي تقوم الحكومة بعملية إصلاح للأراضي بها وإنشاء قرى للفلاحين فيها، وهي المنطقة المعروفة بمنطقة فلوريدا، وقد وقفت على التفاصيل الخاصة بتوزيع المنازل

التي يتم إقامتها ومساحات الأرض على هؤلاء الفلاحين، والتي تضمنت تسهيلات جمة فيما يخص تسديد أقساطها للحكومة، هذا إلى جانب ما تزود به القرى المنشأة من مدارس أولية وكنائس ومراكز للعلاج، حيث كانت تشترك كل أربع قرى متجاورة في مركز صحي يقوم على خدمتها، وغير ذلك من مساعدات أخرى كان من شأنها مساعدة الفلاحين على الاستمرار بتلك الأماكن. وأخيرًا كانت مغادرة البعثة في المساء عائدة إلى إشبيلية.(١٧٧)

وشهد اليوم التالي –٢١ أبريل– العديد من التحركات للبعثة في إشبيلية، والتي كان من بينها زيارة بعض المزارع البقولية الخاصة ببعض كبار الزراع، وزيارة معهد مباحث القطن واستخراج زيت البذرة، وتفقد مزرعة القطن التابعة له، واختتمت البعثة نشاطها في ذلك اليوم بزيارة المعامل الخاصة بمباحث الدخان، حيث عادت بعدها إلى مقر إقامتها.(١٧٨)

وفي ٢٢ أبريل جاء توجه البعثة إلى قرطبة المدينة ذات الشهرة الكبيرة أيام الحكم الإسلامي للأندلس، وهي في طريقها إلى هناك، وعلى بعد ٣٠ كم من إشبيلية، كان توقفها عند مدينة موراتليا لزيارة محطة جيجوادا الخاصة بتربية الخيول العسكرية، وقد وقفت بها على تفاصيل تتعلق بعدد الخيول الموجودة – ٣٠٠ فرس و١٥ حصانًا – والتي بعضها خيول عربية معدة للطلوقة، بينما أغلبها من النوع الإسباني، وما تضمه المحطة من مزرعة تبلغ مساحتها ٣٢٥٠ فدانًا، يزرع منها ٤٠% محصولات زراعية وخضرًا والباقي مرعى للخيول .. إلخ، وقد حرصت البعثة على أخذ بعض الرسوم الخاصة بالخيول الموجودة، وتزويد تقريرها عن الرحلة بها(١٧٩).

وبعد انتهاء الزيارة واصلت البعثة سفرها إلى قرطبة، ولدى وصولها قامت بزيارة الجامع القديم بها، والذي حوله الإسبانيون بعد إجلاء المسلمين عن الأندلس إلى كنيسة، وقد عُلقت في مئذنته النواقيس، شأنه في ذلك شأن جميع المساجد هناك، الأمر الذي أثار شجونًا لدى البعثة، والتي ضمنت تقريرها وصفًا سريعًا لحالة الجامع أيام الحكم الإسلامي، وما آل إليه بعد ذلك حينما تقرر بناء الكنيسة في وسطه. وقد حدث في تلك الأثناء أن توجه اثنان من أعضاء البعثة – وهما محمد طاهر ومحمد بهي الدين بركات – إلى غرناطة ليشاهدا ما لم يشاهداه مع بقية الأعضاء حينما كانوا بها(١٨٠)، بينما واصل الباقون نشاطهم الذي كان قد أعد له سلفًا. ولا ندري من جانبنا لماذا هذا الانقسام عن البعثة للمرة الثانية من جانب العضوين

المذكورين، اللهم إلا إذا كان انضمامهما لها منذ البداية كان بهدف السياحة في المقام الأول وليس العمل فيما ذهبت قاصدة تلك البلاد من أجله، وهو أمر إن صح، لكان يجب أن يُساءل فيه مجلس إدارة الجمعية الزراعية الملكية من قبل جمعيتها العمومية، بغض النظر عن أن العضوين كانا متحملين لنفقات الرحلة بالنسبة لهما وليس الجمعية.

وعمومًا، فقد قامت البعثة بعد زيارتها لمخازن خاصة بالغلال كالتي سبق أن مرت بها في تونس– قامت بمغادرة قرطبة إلى قرية إتيكا؛ لزيارة محطة قائمة بها لتربية الخيول العسكرية، وقد نزلت عند وصولها بمقر الحكومة هناك، ومنه جاء انتقالها للمحطة بشكل رسمي في ركب من العربات التي تجرها الخيول المطهمة، وبعد استعراضها للخيول الموجودة، أُقيم أمامها استعراض عسكري بقيادة قائد الأورطة المقيمة هناك ومشاركة كبار ضباطها، ثم كانت مشاهدتها لمحطة ملحقة تقوم على تربية الدواجن، وقد سجلت إعجابها بما لاقته من حسن استقبال من جانب رجال عسكريين يغلب عليهم وفق قولها"خلق الجندية المنظم".(١٨١)، وهو في الواقع قول كان على البعثة أن تربأ بنفسها عنه، في ضوء ما كان معلومًا ما اقترفه الجيش الإسباني من جرائم في منطقة الريف بشمال مراكش، والتي كانت لا تزال تحت سيطرته.

وقد عادت البعثة إلى إشبيلية في المساء، لتقوم في اليوم التالي– ٢٣ أبريل– بزيارة مزارع الأرز بمنطقة سيفليا القريبة، والتي قضت فيها اليوم كله، وهناك وقفت على تاريخها لمَّا كانت مغطاة قديمًا بالمياه، ثم شقْ نهر الوادي الكبير لها بعد انحسار المياه عنها، واستمرارها مع ذلك منطقة مالحة تنمو فيها الحشائش والمراعي، إلى أن جرى استصلاحها في العصر الحديث، وزودت البعثة كذلك بكثير من المعلومات المتعلقة بزراعة الأرز، والمراحل التي يمر بها بعد جمع محصوله، كما أحيطت علمًا بزراعة القطن أيضًا، وكان من بين ما لفتت إليه بشأن تلك الزراعة الأخيرة، أن الأنواع المصرية هي المفضلة هناك.(١٨٢)

وبعد الانتهاء من تلك، الزيارة عادت البعثة إلى إشبيلية، لتستقل القطار مساء مغادرة إلى مدريد العاصمة الإسبانية.(١٨٣)

في مدريد وضواحيها

كان في انتظار البعثة لدى وصولها مدريد– في ٢٤ أبريل– مندوبًا عن الحكومة الإسبانية، والقائم بأعمال السفارة المصرية ومعه بعض زملائه، وقد ابتدأت أعمالها بزيارة تلك السفارة، وهي الأعمال التي

شملت كذلك زيارتها لقرية على بعد ٦٠ كم من مدريد، كانت قد هدمت خلال الحرب الأهلية- اندلعت نيرانها بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٩- وأعيد بناؤها ثانية، ووزعت على ساكنيها ممن هدمت منازلهم والعاملين بها، كما مرت البعثة أيضًا بقصر للجنرال فرانكو Franco رئيس إسبانيا، ثم كانت عودتها للعاصمة بعد ذاك.(١٨٤)

وفي اليوم التالي جاءت زيارتها للمتحف الفني للصور المعروف بالبرادو، والذي أسس عام ١٨١٩ في عهد الملك فيرناندو السابع (1833 -1813) FernandoVII، وكان يضم وقتذاك حسبما أفادت البعثة نحو ٣٠٠٠ صورة رسمها أشهر الفنانين قبل القرن ١٩، كما زارت مساقط للمياه تولد منها الكهرباء، وبعض القرى الصغيرة التي يشبه بعضها العزب المصرية .. إلخ. وفي ٢٦ أبريل واصلت البعثة نشاطها بزياراتها للعديد من الأماكن، كحديقة النباتات، ومحطة لتربية الخيول والماشية، والمدينة الجامعية للطلبة، والتي تقع خارج مدريد، وقد جالت فيها نحو ساعتين وقفت خلالهما على تفاصيل كثيرة، كان أبرزها ما تتمتع به من توفير كل أسباب الحياة الجامعية للطلاب.(١٨٥)

وقد شهد آخر أيام البعثة بمدريد- ٢٧ أبريل- زيارتها لبلدة إسكوريال التي تبعد عن العاصمة بنحو ٥٠ كم، وتقوم في مكان جبلي يشبه في جماله الجبال السويسرية، وهناك، وبعد تناولها للغداء الذي دعاها إليه وزير الزراعة الإسباني، وحضره كبار العاملين معه ورجال السفارة المصرية، قامت بزيارة مكتبة الإسكوريال العالمية التي تحوي مليوني مجلد في مختلف العلوم والفنون، منها كثير من المخطوطات القديمة والكتب العربية، وقد اطلعت بها على نسخة خطية من القرآن الكريم تعود إلى أيام الحكم العربي. وبعد العودة إلى مدريد في المساء كان حضور البعثة لحفل التكريم الذي أقيم لها من قبل المفوضية المصرية، وقد حضره لفيف من المهتمين بالشأن الزراعي من الإسبانيين.(١٨٦)

المحطات الأخيرة

غادرت البعثة مدريد بالطائرة إلى بلنسية في ٢٨ أبريل، وكان في استقبالها لدى وصولها مدير الجمعيات التعاونية للأرز، وعلى الفور جاء تحركها إلى بلدة سوكا، حيث معهد مباحث الأرز، وهناك وقفت على كل التفاصيل الخاصة بزراعة هذا المحصول، وقد حصلت على بذور لثلاثة أنواع من أكثر الأنواع هناك إنتاجًا وجودة، لتجربتها بمصر تحت إشراف الفنيين من رجال الجمعية الزراعية الملكية.(١٨٧)

كما زارت البعثة كذلك بمنطقة بلنسية مزارع عدة للبرتقال، وقد أبدت إعجابها بتلك الزراعة أيما إعجاب، ومرت بمعهد الأبحاث الخاصة بهذا المحصول، والذي وقفت فيه على نتائج التجارب المختلفة التي أجريت في إسبانيا بشأن زراعاته، وتناقشت في تلك النتائج مع القائمين بأمر التجارب، واهتمت بمعرفة الأسباب وراء قلة المحصول بمصر مقارنة بإسبانيا، وكان لها جهودها في هذا الشأن حتى بعد عودتها إلى مصر، والتي أسفرت عن أن الفرق الكبير بين إنتاج إسبانيا ومصر في الموالح إنما هو ناتج عن خصوبة الأراضي الإسبانية واحتوائها على العناصر الغذائية بكميات أوفر مما هو موجود بأخصب أراضي مصر، وبناء عليه كان لها نصائحها التي توجهت بها إلى ملاك الحدائق والبساتين في مصر.(١٨٨)

وكان للبعثة ببلنسية مشاهداتها كذلك لزراعات أخرى، كأشجار الخروب الموجودة على جوانب الطرق للتظليل، فضلًا عن وجودها منزرعة بمساحات كبيرة من الأراضي، حيث يُنتفع بثمارها في تغذية الماشية، وعمل أصناف من الحلوى والشراب المرطب، كما شاهدت أيضًا أنواعًا مختلفة من الخضروات، مثل البطيخ والشمام والطماطم والقنبيط والقرع الإسلامبولي وغيرها، واستحضرت معها بعض بذور تلك الخضروات من أجل تجربة زراعتها في مصر، وألمحت بهذا الصدد إلى ما ارتأته في بعض مناطق الخضر التي تتأثر بنزول البرد من استعمال قنابل توضع في جهاز لاتقاء تأثير ذلك البرد، إذ بمجرد ظهور السحاب البردي على بعد ١٥ إلى ٢٠ مترًا تقريبًا قبل نزوله على الخضروات، يتم ضربه بهذه القنابل، فيتحول البرد إلى ماء وينزل رذاذًا على الأرض فلا يضر بالخضروات، وارتأت البعثة أن تلك طريقة سهلة يمكن استعمالها في مصر بنجاح لتجنب نزول البرد على الخضروات الشتوية، والذي أتلف كثيرًا منها في العام السالف.(١٨٩)

وفي يوم ٢٩ أبريل قام بعض أعضاء البعثة بزيارة لمحطة خاصة بتعبئة البرتقال، تقع على مسافة ٥٥ كم من بلنسية، وقد وقفوا على ما بها من إمكانيات حديثة للتشغيل، فضلًا عن المراحل التي تمر بها عملية التعبئة(١٩٠)، والتي تكشف بوضوح عن تقدم هائل في هذا الشأن.

وقد زارت البعثة ضمن نشاطها لهذا اليوم، الجمعية التعاونية العامة للأرز، وأُحيطت بما تقوم به من إمداد زارعي هذا المحصول بما يحتاجون إليه من نصائح خاصة بالزراعة، وتزويدهم بالتقاوي، والأسمدة .. إلخ، وما يتم عند الحصاد من تسلمها للمحصول وقيامها بتصديره للبيع في الخارج، وأشادت بنجاح

الجمعية، والذي دللت عليه ببلوغ رأس مالها الذي بدأت به– وكان يوازي ألف جنيه مصري تقريبًا– إلى ما يقرب من مليون جنيه، متمنية وجود جمعية مماثلة بمصر لمحصول القطن على مستوى القطر، ومحصول البرتقال بمديرية القليوبية،(١٩١) التي كانت تشتهر بزراعته حينذاك.

وفي مساء ذلك اليوم، عادت البعثة إلى مدريد، لتغادر في الغد إلى طليطلة الواقعة إلى الجنوب من العاصمة، وبعدما جالت بها ووقفت على بعض معالمها، كانت العودة ثانية إلى مدريد، حيث أقامت في المساء حفل العشاء الذي دعت إليه موظفي المفوضية المصرية وبعض موظفي وزارة الزراعة الإسبانية الذين رافقوا البعثة في زياراتها، لتنتهي عند ذاك أعمالها، ويغادر في اليوم التالي فريق من أعضائها إلى باريس(١٩٢)، بينما يتوجه الآخرون إلى جهات أخرى من أوروبا.(١٩٣)

خاتمة

تلك كانت نماذج ثلاثة لبعثات زراعية توجهت من مصر إبان العصر الملكي إلى بلدان مختلفة للوقوف على أحوال الزراعة بها وإمكانية الاستفادة من تجاربها في مصر، وقد وضح جليًا الجهود التي قامت بها تلك البعثات، سواء كانت حكومية (بعثة جاوه وسنغافورة وسيلان ١٩٣٣) أو غير حكومية (بعثة فلسطين ١٩٤٤؛ بعثة شمال أفريقيا وإسبانيا ١٩٥٠)، وكان لها نتائجها التي أخذتها بلا شك الجهات الباعثة بعين الاعتبار كي يمكن تحقيق ما خرجت البعثات لأجله من أهداف.

وقد لوحظ عدم اقتصار نشاط البعثات على مجال الزراعة وما يتصل به فقط، إذ امتد ليشمل جوانب أخرى مختلفة، كالتعليم مثلًا أو بعض عادات الناس وتقاليدهم .. إلخ، وقد كان ذلك طبيعيًا في مثل تلك البعثات، بل وإيجابيًا أيضًا، خاصة وأنه لم يؤثر بشكل عام على صميم أعمال البعثات ومهامها الرئيسة.

هذا ولا يخفى عدم تطرق البعثات إلى أي من النواحي السياسية، ويبدو أن ذلك كان من الأمور المؤكد عليها البعد عن الخوض فيها، فجميع البلدان التي زارتها، سواء في جنوبي شرق آسيا أو في العالم العربي، كانت محتلة، كما أن إسبانيا كان لها وجودها الاستعماري في شمال مراكش، وبالتأكيد أدى التزام البعثات بتلك السياسة إلى تنفيذ برامجها وأداء مهامها دون أية مشكلات أو معوقات.

الهوامش

(١) يُذكر من بين تلك البعثات ما أُرسل من قِبل وزارة الزراعة إلى كل من إنجلترا، وفرنسا، والنمسا، والمجر، وهولندا، وألمانيا. انظر: الفلاح الاقتصادي، ١٩٣٣/١٠/١١، ص ١٩. وما أرسلته كذلك الجمعية الزراعية إلى الصومال، والسودان، وليبيا، وتونس، فضلًا عن بعض بلاد أوروبا وأمريكا. انظر: الجمعية الزراعية الملكية، العيد الذهبي لمرور خمسين عامًا على تأسيس الجمعية الزراعية الملكية ١٨٩٨- ١٩٤٨، الجمعية الزراعية الملكية، القاهرة، ١٩٤٨، ص ١١. ومن المهم بمكان الإشارة إلى أنه لا توجد- في حدود علمنا- أية دراسات علمية حول تلك البعثات، سوى بعثة السودان عام ١٩٣٥، التي وُضعت عنها كتابات عدة، كان من أبرزها الكتاب الذي ألفه أحد كبار الصحفين الذين رافقوا البعثة، وهو عبد الله حسين مندوب الأهرام، تحت عنوان "السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية"، ج٣، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٣؛ وبحث حمدنا الله مصطفى حسن عن "البعثة المصرية الاقتصادية للسودان في عام ١٩٣٥"، مجلة مصر الحديثة، العدد الثاني، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ص ٢٣٧- ٢٦٤؛ ومقالة ليونان لبيب رزق بعنوان "إعادة اكتشاف السودان"، في الأهرام، ديوان الحياة المعاصرة، الحلقة ٥٥٩ بتاريخ ٢٠٠٤/٨/١٩، ص ٧. وتجدر الإشارة إلى أن تلك البعثة لم تكن الوحيدة إلى السودان، إذ حدث فيما بعد- عام ١٩٥١- أن قامت بعثة إلى أعالي النيل والسودان. انظر: تقرير عن أعمال الجمعية الزراعية الملكية في سنة ١٩٥٠/ ١٩٥١ مقدم من مجلس إدارتها إلى الجمعية العمومية المنعقدة في ٢٦ فبراير سنة ١٩٥٢، الجمعية الزراعية الملكية، القاهرة، ١٩٥٢، ص ٦.

(٢) تقرير عن زيارة البعثة الزراعية المصرية إلى جاوه وسنغافورة وسيلان، وزارة الزراعة، القاهرة، ١٩٣٥، ص ١؛ الأهرام، ١٩٣٣/١٢/٩، ص ١٠.

(٣) تقرير عن زيارة البعثة الزراعية المصرية إلى جاوه وسنغافورة وسيلان، ص ١.

(٤) المصدر نفسه، ص ١.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢.

(٧) المصدر نفسه، ص ٣.

(٨) المصدر نفسه، ص ٣.

(٩) هيچاكارتا Jakarta العاصمة الحالية لإندونسيا، وكانت تسمى في الماضي "چاياكارتا"، وأسماها الهولنديون خلال فترة استعمارهم للبلاد "باتاڤيا"، وبعد تحرير اليابانيين للمنطقة في فترة الحرب العالمية الثانية أعادوا الاسم الأصلي للمدينة ليصبح "چاكارتا".

https://www.batuta.com/الوجهات/إندونيسيا/مدن-إندونيسيا/جاكرتا/

ولموجز عن تاريخ الاستعمار الهولندي لجزر الهند الشرقية "إندونسيا" انظر: فايز صالح أبو جابر، الاستعمار في جنوب شرقي آسيا، دار البشير للنشر والتوزيع، عَمان، ١٩٩١، ص ص ١٧٥- ١٩٥.

(١٠) تقرير عن زيارة البعثة الزراعية المصرية إلى جاوة وسنغافورة وسيلان، ص ٣.

(١١) أُسست تلك الرابطة بإندونسيا عام ١٩٢٨، واهتمت منذ ذلك الوقت بدعوة الناس إلى التوحيد، وذلك بطريق الحكمة والموعظة الحسنة. انظر:

https://rabithahalawiyah.wordpress.com/about/

(١٢) الأهرام، ١٩٣٣/١٠/٢٠، ص ١. من المعروف أن اهتمام الإندونيسيين بالأزهر اهتمام قديم ومميز في الوقت نفسه، لما وجدوا فيه من وسطية وسماحة تتماشى مع فطرتهم، ومن ثم كان حرصهم منذ حقبة طويلة على إرسال أبنائهم للدراسة فيه على أيدي شيوخه والنهل من علومه. وفيما يسبق بداية مجئ هؤلاء الدارسين، كان الإندونيسيون يستغلون مواسم الحج للقاء علماء الأزهر وسؤالهم عما يشغل بالهم من مسائل الفقه والشريعة. انظر: www.aman-dostor.org/10165.

(١٣) الأهرام، ١٩٣٣/١٠/٢٠، ص ١.

(١٤) تقرير عن زيارة البعثة الزراعية المصرية إلى جاوه وسنغافورة وسيلان، ص ٣.

(١٥) تولى إدارة الحديقة بعد اعتزال ترويب عام ١٩٠٩، والذي توفي في العام التالي مباشرة. المصدر نفسه، ص ٤.

(١٦) المصدر نفسه، ص ص ٣، ٤.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٥.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٧.

(١٩) لبعض المعلومات عن هذة الشجرة انظر: بوابة الأهرام الزراعي، مقال لوليد فؤاد بعنوان"شجرة السابوتا" في ٢٠١٧/٥/١٠- رابط: http://agri.ahram.org.eg/News/66099.aspx

(٢٠) تقرير عن زيارة البعثة الزراعية المصرية إلى جاوة وسنغلفورة وسيلان، ص ٧.

(٢١) المصدر نفسه، ص ص ٧-٩.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ٨.
(٢٣) ببسين Pepsin إنزيم هضمي يقوم بهضم البروتينات في المعدة، وكان أول إنزيم حيواني يتم اكتشافه، وذلك على يد تيودور شوان عام ١٨٣٦. انظر:
https://ar.wikipedia.org/wiki/ببسين
(٢٤) تقرير عن زيارة البعثة الزراعية المصرية إلى جاوة وسنغافورة وسيلان، ص ٨.
(٢٥) المصدر نفسه، ص ٩.
(٢٦) المصدر نفسه، ص ص ٩، ١٠.
(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٠؛ الأهرام، ١٩٣٣/١٠/٢٠، ص ١.
(٢٨) تقرير عن زيارة البعثة الزراعية المصرية إلى جاوه وسنغافورة وسيلان، ص ١٠.
(٢٩) المصدر نفسه، ص ص ١٠، ١١.
(٣٠) المصدر نفسه، ص ١١.
(٣١) المصدر نفسه، ص ص ١١، ١٢.
(٣٢) المصدر نفسه، ص ص ١٢-١٤.
(٣٣) المصدر نفسه، ص ص ١٤- ١٨.
(٣٤) المصدر نفسه، ص ص ١٨-٢٦.
(٣٥) المصدر نفسه، ص ص ٢٦، ٢٧.
(٣٦) المصدر نفسه، ص ٢٧. من المعروف أن الملك فؤاد كان أبرز حكام البلاد الإسلامية الذين تطلعوا في أعقاب سقوط الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤ ليكون خليفة للمسلمين، وكان الأزهر في مقدمة المتحمسين لذلك، ودعا من أجل تحقيقه- دون الإفصاح عن حقيقة هدفه- إلى المؤتمر الإسلامي العام، والمعروف بمؤتمر الخلافة، الذي انعقد في القاهرة في مايو ١٩٢٦ برئاسة شيخ الجامع الأزهر محمد أبو الفضل، وكان ضمن من حضر المؤتمر من ممثلي الأمم الإسلامية اثنان من جزر الهند الشرقية (إندونسيا)، وهما عبد الله أحمد وعبد الكريم أمر الله. هيكل، محمد حسين، مذكرات في السياسة المصرية، جا، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠، ص ١٩٤؛
https://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=129282
(٣٧) تقرير عن زيارة البعثة الزراعية المصرية إلى جاوه وسنغافورة وسيلان، ص ص ٢٧-٣٢.
(٣٨) المصدر نفسه، ص ص ٣٢- ٣٩.
(٣٩) المصدر نفسه، ص ص ٣٩، ٤٠.
(٤٠) المصدر نفسه، ص ص ٤٠، ٤٢.
(٤١) المصدر نفسه، ص ٤٢.
(٤٢) المصدر نفسه، ص ص ٤٢-٤٤.
(٤٣) القلبق التركي كان لباسًا رسميًا للرأس لدى كل من العسكريين العثمانيين والحراس الليليين والدرك، وهو يشبه الطربوش، ولونه أسود. انظر:
https://www.olddamas.com/سوق-القلبقجية/
(٤٤) تقرير عن زيارة البعثة الزراعية المصرية إلى جاوه وسنغافورة وسيلان، ص ص ٤٤- ٥٠.
(٤٥) المصدر نفسه، ص ص ٥٠، ٥١.
(٤٦) المصدر نفسه، ص ٦٩.
(٤٧) المصدر نفسه، ص ٧٠؛ الأهرام، ١٩٣٣/١٢/٩، ص ١٠.
(٤٨) تقرير عن زيارة البعثة الزراعية المصرية إلى جاوه وسنغافوره وسيلان، ص ١١٥.
(٤٩) رادين ستومو من رجالات إندونسيا البارزين، وقد أخذ على عاتقه الدعاية في غرب جاوه لأول حزب سياسي ظهر بالبلاد في الفترة المعاصرة، وهو حزب بودي أوتومو الذي تأسس عام ١٩٠٨، وفي عام ١٩٣٠ أسس حزبًا جديدًا برئاسته حمل اسم "اتحاد الشعب الإندونيسي"، والذي اتحد لاحقًا مع حزب بودي أوتومو ليكونا حزبًا واحدًا تحت اسم "حزب إندونسيا الكبرى" الذي لعب دورًا مهمًا في الحركة الوطنية الإندونيسية. انظر:
https://ar.wikisource.org/wiki/مجلة_الرسالة/العدد_٦٣٦/جزر_الهند_الشرقية
(٥٠) نقلًا عن: الأهرام، ١٩٣٣/١١/٢٣، ص ١.
(٥١) المصدر نفسه، ص ١.
(٥٢) تقرير عن زيارة البعثة الزراعية المصرية إلى جاوه وسنغافورة وسيلان، ص ص ٧١، ٧٢.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ٧٢.
(٥٤) المصدر نفسه، ص ١١٦.
(٥٥) المصدر نفسه، ص ٧٣.
(٥٦) المصدر نفسه، ص ص ٧٣، ٧٤.
(٥٧) المصدر نفسه، ص ص ٧٤- ٧٦.
(٥٨) المصدر نفسه، ص ٧٦.
(٥٩) المصدر نفسه، ص ٧٦.
(٦٠) المصدر نفسه، ص ص ٧٦، ٨١.
(٦١) المصدر نفسه، ص ص ٧٧- ٨١.
(٦٢) المصدر نفسه، ص ٨١.
(٦٣) المصدر نفسه، ص ٨٩.
(٦٤) عن أسماء تلك النباتات والبذور واستخداماتها انظر: (المصدر نفسه، ص ص ٨٢- ١١٥).
(٦٥) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية إلى فلسطين عن مشاهداتها أثناء رحلتها من ٢٥ مايو لغاية ٤ يونية سنة ١٩٤٤، الجمعية الزراعية الملكية، القاهرة، ١٩٤٤، ص: أ
(٦٦) كان فؤاد أباظة حينذاك مديرًا عامًا للجمعية، وعضوًا بمجلس إدارتها، وقد حدث أن تخلف عن مرافقة البعثة في رحلتها لظروف مرضية ألمت به فجأة قبيل السفر. المصدر نفسه، ص ص:أ، ب، ٢.
(٦٧) المصدر نفسه، ص ١.
(٦٨) المصدر نفسه، ص ص ٢، ٦-٩.
(٦٩) المصدر نفسه، ص ١٠.
(٧٠) المصدر نفسه، ص ص ١١-١٩.
(٧١) المصدر نفسه، ص ص ١٩- ٢١.
(٧٢) المصدر نفسه، ص ٢١.
(٧٣) المصدر نفسه، ص ص ٢١- ٢٣.
(٧٤) المصدر نفسه، ص ٢٣.
(٧٥) السامرية اليهودية مجموعة عرقية دينية تنسب إلى بني إسرائيل، لكنها تختلف عن اليهود، حيث تدين بالديانة السامرية المناقضة لليهودية، رغم اعتمادها على التوراة، والتي تعتبرها هي الأصح من تلك التي تعتمد عليها اليهودية.. لمزيد من التفاصيل انظر: https://ar.wikipedia.org/wiki/سامريون
(٧٦) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية إلى فلسطين، ص ص ٢٣- ٢٦.
(٧٧) المصدر نفسه، ص ٢٦.
(٧٨) المصدر نفسه، ص ص ٢٦، ٢٧.
(٧٩) عن التعليم في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني انظر: أحمد طربين، فلسطين في عهد الانتداب البريطاني، مستل من الموسوعة الفلسطينية، القسم الخاص، المجلد الثاني، هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، ١٩٩٠، ص ص ١١٢٤- ١١٣٣.
(٨٠) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية إلى فلسطين، ص ص ٢٧، ٢٨.
(٨١) المصدر نفسه، ص ص ٢٨، ٢٩.
(٨٢) الأهرام، ١٩٤٤/٦/١، ص ٢.
(٨٣) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية إلى فلسطين، ص ص ٢٩- ٣١.
(٨٤) المصدر نفسه ص ص ٣١-٣٧.
(٨٥) المصدر نفسه، ص ص ٤١، ٤٢.
(٨٦) المصدر نفسه، ص ص ٣٧- ٤٠.
(٨٧) دجاج اللجهورن من أشهر سلالات إنتاج البيض، ويعتبر هو الأصل الداخل في جميع سلالات إنتاج البيض تقريبًا، والتي تربى حاليًا في مختلف أنحاء العالم. انظر: aradina.kenanaonline.com/posts/185930.
(٨٨) تقرير بعثة الجمعية الزراعية إلى فلسطين، ص ص ٤٠، ٧٣-٧٥.
(٨٩) المصدر نفسه، ص ص ٢٩، ٤١.
(٩٠) المصدر نفسه، ص ص ٤٢- ٥٤.
(٩١) المصدر نفسه، ص ٥٥.

(٩٢) المصدر نفسه، ص ٥٥.
(٩٣) المقطم، ١٩٤٤/٦/٥، ص ٢.
(٩٤) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية إلى فلسطين، ص ص ٥٦، ٥٧.
(٩٥) المصدر نفسه، ص ص ٥٧- ٦١.
(٩٦) المصدر نفسه، ص ص ٦٢-٦٤.
(٩٧) عن فكرة إنشاء شركة تنوفا ونظامها وما تقوم به من دور في مجال التعاون بفلسطين انظر: مجلة الفلاحة، العدد الأول من السنة الثالثة عشر، يناير وفبراير ١٩٣٣، ص ص ١٥- ٢٤.
(٩٨) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية إلى فلسطين، ص ٦٥.
(٩٩) المصدر نفسه.
(١٠٠) المصدر نفسه، ص ص ٦٥، ٦٦.
(١٠١) المصدر نفسه، ص ٦٧.
(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٦٨.
(١٠٣) المصدر نفسه، ص ص ٦٩- ٧٢.
(١٠٤) المصدر نفسه، ص ص ٧٣، ٧٥-٧٧.
(١٠٥) المصدر نفسه، ص ص ٧٨- ٨٠.
(١٠٦) في الواقع لم يكن قد صار بعد جيش لليهود في فلسطين، وإنما بعض الوحدات والمنظمات العسكرية الإرهابية، وفي مقدمتها "الهاجاناه" التي كان الإناث ضمن من يعملون في صفوفها، وذلك كعاملات لاسلكي، وسائقات سيارات إسعاف، وطبيبات وممرضات، وضابطات استخبارات ومقاتلات، وقد أُقيم فيما بعد- مايو١٩٤٨- ما يُعرف بسلاح النساء، على غرار ما كان متبعًا حينذاك بالجيش البريطاني. انظر: حمدان بدر، دور منظمة الهاغاناه في إنشاء إسرائيل، دار الجليل للنشر، عَمان، ٢٠١٦، ص ص ٤١٢، ٤٢٦.
(١٠٧) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية إلى فلسطين، ص ٨٠.
(١٠٨) خلال عام ١٩٢١ منح هربرت صمويل- أول مندوب سام لبريطانيا في فلسطين بعد وضع الأخيرة تحت الانتداب البريطاني سنة ١٩٢٠- بنحاس روتنبرج اليهودي الروسي امتيازان لتوليد الطاقة الكهربائية بواسطة القوة المائية، كان أحدهما امتياز نهري الأردن واليرموك، والذي حُددت مدته بـ ٧٠ عامًا تبدأ من عام ١٩٢٦، وذلك بهدف الاستفادة من تلك الطاقة في الإنارة والصناعة والري. انظر: زكريا إبراهيم السنوار وربا جمال الزهار، الصناعة الصهيونية في فلسطين (١٩١٨-١٩٤٨)، بحث منشور بمجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الثامن والثلاثون (٢)، يونية ٢٠١٦، ص ١٢٧؛
https://ar.wikipedia.org/wiki/مشروع_روتنبرغ
(١٠٩) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية إلى فلسطين، ص ص ٨١- ٨٣.
(١١٠) زكريا إبراهيم وربا جمال، البحث المذكور، ص ١٢٧.
(١١١) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية إلى فلسطين، ص ص ٨٣- ٨٥.
(١١٢) تعود فكرة إنشاء الجامعة العبرية إلى هيرمان شابيرو أستاذ الرياضيات بجامعة هايدلبرج Heidelberg بألمانيا، وفي عام ١٩٠١ أيد المؤتمر الصهيوني الخامس الفكرة، وفي المؤتمر الحادي عشر عام ١٩١٣ تقرر تنفيذها على أرض الواقع، لكن اندلاع الحرب العالمية الأولى أوقف كل شيء، واستمر الوضع على ذلك حتى كان صدور تصريح بلفور في نوفمبر ١٩١٧، فبعثت الفكرة من جديد، ووضع الحجر الأساسي للجامعة فوق جبل الزيتون بالقدس في يوليو ١٩١٨، لتفتتح الجامعة بعد ذلك رسميًا في إبريل ١٩٢٥. انظر: (عواطف عبد الرحمن، مصر وفلسطين، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والعلوم والآداب، الكويت، فبراير، ١٩٨٠، ص ص ١٦٩، ١٧٠).
(١١٣) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية إلى فلسطين، ص ص ٨٥- ٨٧.
(١١٤) المصدر نفسه، ص ٨٧. يُذكر أن هناك إصلاحات قد أُجريت بالمسجد الأقصى حينذاك، وقد تحملت الحكومة المصرية تكلفتها التي بلغت عشرة آلاف جنيه. المقطم، ١٩٤٤/٥/٣٠، ص ٢.
(١١٥) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية إلى فلسطين، ص ص ٨٧، ٨٨.
(١١٦) المصدر نفسه، ص ص ٨، ٩٠.
(١١٧) المصدر نفسه، ص ص ٩، ٩١-٩٦.
(١١٨) المصدر نفسه، ص ص ٩٦، ٩٧.
(١١٩) المصدر نفسه، ص ص ٩٨، ٩٩.
(١٢٠) المصدر نفسه، ص ص ٣، ٩، ٩٩.
(١٢١) المصدر نفسه، ص ٣.

(١٢٢) المصدر نفسه، ص ص ٩، ٩٩.
(١٢٣) تشير مجلة الفلاحة وهي تعرض لذلك النشاط من جانب البعثة إلى أن ما جاء بإحدى صفحات تقرير البعثة- صفحة ١٩- من إشارة إلى أن هناك ستة أنواع من الفاكهة ذُكرت أسماؤها تنمو بفلسطين بينما لا توجد في مصر، إنما هو قول يفتقر إلى الدقة، حيث إن تلك الأنواع موجودة بمصر من زمن طويل وتعطي ثمارًا، وكان قد سبق لقسم البساتين بوزارة الزراعة أن استوردها، كما استوردتها كذلك بعثة الوزارة إلى جاوه وسنغافورة وسيلان عام ١٩٣٣. انظر: مجلة الفلاحة، العددان الرابع والخامس (يوليو- أكتوبر ١٩٤٤)، السنة الرابعة والعشرون، ص ص ٢٨٢- ٢٨٤.
(١٢٤) أقيم هذا المعرض في الفترة من أول مارس وحتى ٢٠ إبريل من العام المذكور، وكان من المعارض المهمة للغاية، والتي حققت نجاحًا كبيرًا. لمزيد من التفاصيل انظر: كتاب المعرض الزراعي الصناعي السادس عشر من أول مارس إلى ٢٠ إبريل سنة ١٩٤٩، الجمعية الزراعية الملكية، القاهرة، ١٩٤٩.
(١٢٥) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية لشمال أفريقيا وإسبانيا عن مشاهداتها أثناء رحلتها في إبريل سنة ١٩٥٠، الجمعية الزراعية الملكية، القاهرة، ١٩٥١، ص ص ١، ٣؛ تقرير عن أعمال الجمعية الزراعية الملكية في سنة ١٩٤٩-١٩٥٠، الجمعية الزراعية الملكية، القاهرة، ١٩٥١، ص ٦.
(١٢٦) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية لشمال أفريقيا وإسبانيا، ص ص ٣، ٤٤؛ الأهرام، ١٩٥٠/٤/١، ص ٨. جدير بالإشارة أن رئيس الجمعية ووكيلها قررا أن يلتقيا بأعضاء البعثة في إشبيلية بإسبانيا.
(١٢٧) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية لشمال أفريقيا وإسبانيا، ص ٤.
(١٢٨) المصدر نفسه، ص ص ١، ٧.
(١٢٩) المصدر نفسه، ص ٧.
(١٣٠) المصدر نفسه، ص ص ٧، ٨.
(١٣١) المصدر نفسه، ص ص ٨، ٩.
(١٣٢) المصدر نفسه، ص ص ٨، ٩.
(١٣٣) المصدر نفسه، ص ٩.
(١٣٤) يعود إنشاء تلك المحطة إلى عام ١٩٢٨، في بقعة صحراوية بحري مصر الجديدة، وعلى بعد ٢٠ كم من قلب القاهرة، وقد بلغت مساحتها ٥٥ فدانًا. عبد العليم عشوب، تاريخ تربية الخيول العربية في مصر، مطبعة عناني بمصر، ١٩٤٢، ص ١٨.
(١٣٥) المصدر نفسه، ص ص ٩، ١٠.
(١٣٦) المصدر نفسه، ص ١٠.
(١٣٧) الأهرام، ١٩٥٠/٤/٦، ص ٦.
(١٣٨) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية لشمال أفريقيا وإسبانيا، ص ص ٨، ١٠، ١١.
(١٣٩) المصدر نفسه، ص ص ١١، ١٤.
(١٤٠) المصدر نفسه، ص ١٤؛ الأهرام، ١٩٥٠/٤/٩، ص ٧.
(١٤١) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية لشمال أفريقيا وإسبانيا، ص ص ١٤، ١٥.
(١٤٢) المصدر نفسه، ص ١٦.
(١٤٣) المصدر نفسه، ص ص ١٦، ١٧.
(١٤٤) المصدر نفسه، ص ١٧.
(١٤٥) المصدر نفسه، ص ١٧.
(١٤٦) المصدر نفسه، ص ص ١٧، ١٨.
(١٤٧) المصدر نفسه، ص ١٨.
(١٤٨) المصدر نفسه، ص ١٨.
(١٤٩) المصدر نفسه، ص ص ١٨، ١٩.
(١٥٠) المصدر نفسه، ص ص ١٩، ٢٠.
(١٥١) المصدر نفسه، ص ١٣.
(١٥٢) انظر: المصدر نفسه، ص ٢٢.
(١٥٣) سيطرت بريطانيا على تلك المنطقة من إسبانيا عام ١٧٠٤، وسلمت الأخيرة بالتنازل عنها بمقتضى معاهدة أوترخت عام ١٧١٣، وظلت بريطانيا تمارس سيادتها عليها حتى عام ١٩٨١، حيث منحتها حكمًا ذاتيًا، مع استمرار تبعيتها للتاج البريطاني.
https://www.marefa.org/مستعمرة_جبل_طارق
(١٥٤) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية لشمال أفريقيا وإسبانيا، ص ٢٤.

(١٥٥) المصدر نفسه.
(١٥٦) المصدر نفسه، ص ص ٢٤، ٢٥.
(١٥٧) المصدر نفسه، ص ٢٥.
(١٥٨) عن الظروف التي نشأ وطُرح فيها هذا المشروع وما اتخذ لتنفيذه من إجراءات انظر: مقالة يونان لبيب بعنوان "مقاومة الحفاء!" في: الأهرام، ديوان الحياة المعاصرة، الحلقة ٦٩٥، بتاريخ ٩/٨/ ٢٠٠٧، ص ٢٧.
(١٥٩) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية لشمال أفريقيا وإسبانيا، ص ٢٥.
(١٦٠) محمد علي علوبة، مبادئ في السياسة المصرية، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٢٣١.
(١٦١) كُتبت في تقرير البعثة، وفي أكثر من موضع، "جنينة الريف"، والصحيح ما ذكرناه "جنة العريف" Generalife. انظر: https://www.alhambradegranada.org/ar/info/laalhambraafondo/generalife1.asp
(١٦٢) لبعض المعلومات حول أصل الغجر وطباعهم وما يشتهرون به انظر: نبيل صبحي حنا، جماعات الغجر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠؛ https://www.masress.com/alkahera/1387
(١٦٣) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية لشمال أفريقيا وإسبانيا، ص ص ٢٥، ٢٦.
(١٦٤) امتد حكم بني نصر أوبني الأحمر ملوك غرناطة من عام ١٢٣٢ إلى عام ١٤٩٢، وبنهايته كانت نهاية حكم المسلمين بالأندلس. انظر: حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٤٤١، ٤٥٤.
(١٦٥) تقرير بعثة الجمعية الزراعية لشمال أفريقيا وإسبانيا، ص ص ٢٦، ٢٧. لمزيد من التفاصيل عن قصر الحمراء وغيره من الآثار الإسلامية في الأندلس انظر: لطفي عبد البديع، الإسلام في إسبانيا، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت. ص ص١٧٩-١٩٩.
(١٦٦) من الجدير ذكره هنا أن مصر عرفت زراعة الدخان من قبل منذ فترة طويلة، ولم يتقرر منعها بها إلا في عام ١٨٩٠، وكان محصول الدخان في عصر محمد علي غير محتكرًا، فكانت أرباحه بأكملها لزارعيه، ومن ثم أقبلوا بشكل واضح على زراعته. انظر: ريفلين، هيلين آن، الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسيني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٣٧؛ أحمد أحمد الحتة، تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر، مطبعة المصري، الإسكندرية، ١٩٦٧، ص ص ١١٢، ١٤٩. ولمزيد من التفاصيل حول زراعة الدخان بمصر إبان عصر محمد علي انظر: أحمد أحمد الحتة، الزراعة المصرية في عهد محمد علي الكبير، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، الذكرى المئوية للمغفور له محمد علي الكبير، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٠، ص ص ٢١٢، ٢١٣.
(١٦٧) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية لشمال أفريقيا وإسبانيا، ص ص ٢٧، ٢٨.
(١٦٨) محمد فهمي لهيطة، تاريخ مصر الاقتصادي في العصور الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥، ص ص ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٥، ٤٤٦. لم نتمكن من الحصول على نسخة من التقرير المشار إليه ليوسف نحاس.
(١٦٩) جرى ذلك في كل من بيلا وشالما من أعمال الغربية. انظر: حلمي أحمد شلبي، صغار ملاك الأراضي الزراعية في مديرية المنوفية (١٨٩١-١٩١٣)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠، ص ١١٨.
(١٧٠) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية لشمال أفريقيا وإسبانيا، ص ص ٢٨، ٢٩.
(١٧١) المصدر نفسه، ص ص ٢٩، ٣٠.
(١٧٢) انظر على سبيل المثال لا الحصر: يوسف نحاس، الفلاح حالته الاقتصادية والاجتماعية، مطبعة المقتطف والمقطم بمصر، ١٩٢٦.
(١٧٣) تقرير بعثة الجمعية الزراعية لشمال أفريقيا وإسبانيا، ص ٣٠.
(١٧٤) المصدر نفسه، ص ٣٠.
(١٧٥) المصدر نفسه، ص ص ٣٠، ٣١.
(١٧٦) المصدر نفسه، ص ٣١.
(١٧٧) المصدر نفسه، ص ص ٣١، ٣٢.
(١٧٨) المصدر نفسه، ص ٣٢.
(١٧٩) المصدر نفسه، ص ٣٢.
(١٨٠) المصدر نفسه، ص ٣٣.
(١٨١) المصدر نفسه، ص ٣٣.
(١٨٢) المصدر نفسه، ص ص ٣٣- ٣٥.
(١٨٣) المصدر نفسه، ص ٣٥.
(١٨٤) المصدر نفسه، ص ٣٥.
(١٨٥) المصدر نفسه، ص ص ٣٥، ٣٦.

(١٨٦) المصدر نفسه، ص ص ٣٦، ٣٧.
(١٨٧) المصدر نفسه، ص ٣٧.
(١٨٨) المصدر نفسه، ص ص ٣٧- ٤٨.
(١٨٩) المصدر نفسه، ص ٤٩.
(١٩٠) المصدر نفسه، ص ٤٩.
(١٩١) المصدر نفسه، ص ٥٠.
(١٩٢) قيل أن ذلك كان بغرض حضور مؤتمر للصناعات القطنية نُظم حينئذ بالعاصمة الفرنسية باريس. الأهرام، ١٩٥٠/٤/٨، ص ٧.
(١٩٣) تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية لشمال أفريقيا وإسبانيا، ص ص ٦، ٥٠.

المصادر والمراجع

أولًا- الوثائق(منشورة)

- تقرير عن زيارة البعثة الزراعية المصرية إلى جاوه وسنغافورة وسيلان، وزارة الزراعة، القاهرة، ١٩٣٥.
- تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية إلى فلسطين عن مشاهداتها أثناء رحلتها من ٢٥ مايو لغاية ٤ يونية سنة ١٩٤٤، الجمعية الزراعية الملكية، القاهرة، ١٩٤٤.
- العيد الذهبي لمرور خمسين عامًا على تأسيس الجمعية الزراعية الملكية ١٨٩٨- ١٩٤٨، الجمعية الزراعية الملكية، القاهرة، ١٩٤٨.
- كتاب المعرض الزراعي الصناعي السادس عشر من أول مارس إلى ٢٠ إبريل سنة ١٩٤٩، الجمعية الزراعية الملكية، القاهرة، ١٩٥١.
- تقرير عن أعمال الجمعية الزراعية الملكية في سنة ١٩٤٩- ١٩٥٠، الجمعية الزراعية الملكية، القاهرة، ١٩٥١.
- تقرير بعثة الجمعية الزراعية الملكية لشمال أفريقيا وإسبانيا عن مشاهداتها أثناء رحلتها في إبريل سنة ١٩٥٠، الجمعية الزراعية الملكية، القاهرة، ١٩٥١.
- تقرير عن أعمال الجمعية الزراعية الملكية في سنة ١٩٥٠- ١٩٥١ مقدم من مجلس إدارتها إلى الجمعية العمومية المنعقدة في ٢٦ فبراير سنة ١٩٥٢، الجمعية الزراعية الملكية، القاهرة، ١٩٥٢.

ثانيًا- المذكرات

- هيكل، محمد حسين، مذكرات في السياسة المصرية، ج١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠.

ثالثًا- المؤلفات والدراسات

- أحمد أحمد الحتة، الزراعة المصرية في عهد محمد علي الكبير، الذكرى المئوية للمغفور له محمد علي الكبير، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٠.
- .....، تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر، مطبعة المصري، الإسكندرية،

.١٩٦٧
- أحمد طربين، فلسطين في عهد الانتداب البريطاني، مستل من الموسوعة الفلسطينية، القسم الخاص، المجلد الثاني، هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، ١٩٩٠.
- حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤.
- حلمي أحمد شلبي، صغار ملاك الأراضي الزراعية في مديرية المنوفية (١٨٩١- ١٩١٣)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠.
- حمدان بدر، دور منظمة الهاغاناه في إنشاء إسرائيل، دار الجليل للنشر، عَمان، ٢٠١٦.
- حمدنا الله مصطفى حسن، البعثة المصرية الاقتصادية للسودان في عام ١٩٣٥، مجلة مصر الحديثة، العدد الثاني، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٣.
- ريڤلين، هيلين آن، الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسيني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.
- زكريا إبراهيم السنوار وربا جمال الزهار، الصناعة الصهيونية في فلسطين (١٩١٨- ١٩٤٨)، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الثامن والثلاثون (٢)، يونية ٢٠١٦.
- عبد الله حسين، السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية، ج٣، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٣.
- عبد العليم عشوب، تاريخ تربية الخيول العربية في مصر، مطبعة عناني بمصر، ١٩٤٢.
- عواطف عبد الرحمن، مصر وفلسطين، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والعلوم والآداب، الكويت، فبراير ١٩٨٠.
- فايز صالح أبو جابر، الاستعمار في جنوب شرقي آسيا، دار البشير للنشر والتوزيع، عَمان، ١٩٩١.
- لطفي عبد البديع، الإسلام في إسبانيا، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.
- محمد علي علوبة، مبادئ في السياسة المصرية، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠.
- محمد فهمي لهيطة، تاريخ مصر الاقتصادي في العصور الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥.
- نبيل صبحي حنا، جماعات الغجر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠.

- يوسف نحاس، الفلاح حالته الاقتصادية والاجتماعية، مطبعة المقتطف والمقطم بمصر، ١٩٢٦.

رابعًا- الدوريات

- الأهرام، ١٩٣٣، ١٩٥٠، ٢٠٠٤، ٢٠٠٧.
- الفلاح الاقتصادي، ١٩٣٣.
- الفلاحة، ١٩٣٣، ١٩٤٤.
- المقطم، ١٩٤٤.

خامسًا- مواقع على شبكة الإنترنت

- aradina.kenanaonline.com.
- http://agri.ahram.org.eg.
- https://ar.wikipedia.org.
- https://ar.wikisource.org.
- https://rabithahalawiyah.wordpress.com.
- https://www.ahlalhdeeth.com.
- https://www.alhambradegranada.org.
- https://www.batuta.com.
- https://www.marefa.org.
- https://www.masress.com.
- https://www.olddamas.com.
- www.aman-dostor.org.

Egyptian Overseas Agricultural Missions during the Royal Era

Abstract:

The current research sheds light on the agricultural missions dispatched whether by the Ministry of Agriculture or the Royal Agricultural Society as one of the important aspects of Egypt's efforts during the Royal Era to promote Egyptian agriculture. These bodies aimed at identifying new experiences, bringing unknown species of crops to Egypt, and to fully benefit from these missions in general.

Since it is not possible to include all the agricultural missions in one research, the researcher has selected certain models, taking into account their spatial and temporal variety, by virtue of the expansion of the kingdom over a long period of time, to ensure the study's integrity.

The selected agricultural missions include the mission of the Ministry of Agriculture to Java, Singapore and Ceylon (Sri Lanka) in 1933, the missions of the Royal Agricultural Society to Palestine in 1944 and to North Africa and Spain in 1950.

The present study covered the itinerary of the first mission from the starting point of Port Said on September 5, 1933, passing through some of the places it quickly landed, until its arrival in Batavia, the capital of Java, on September 21. Also, it tackled its subsequent visit to the famous botanical garden in Buitenzorg, then to Pasarmingho, where the fruit experiment station is located, and other places in Java detailed within the study. The mission then moved to Singapore and Ceylon, the latter which was the destination of the mission, and to return to the country after a trip that lasted approximately three and a half months.

For the second missions deputed by the Agricultural Society to Palestine in 1944, the study examined in details its visits to many orchards and technical experiment stations, during a ten-day program of the mission beginning on May 26, 1944, and then returned to Egypt on June 5, 1944.

Finally, the study examined the visits during the last mission to North Africa and Spain in April of 1950. The study considers the third mission was the most active one as it will be clarified through the study.

Keywords: Agricultural Missions, Royal Era, Batavia, Buitenzorg, Pasarmingho